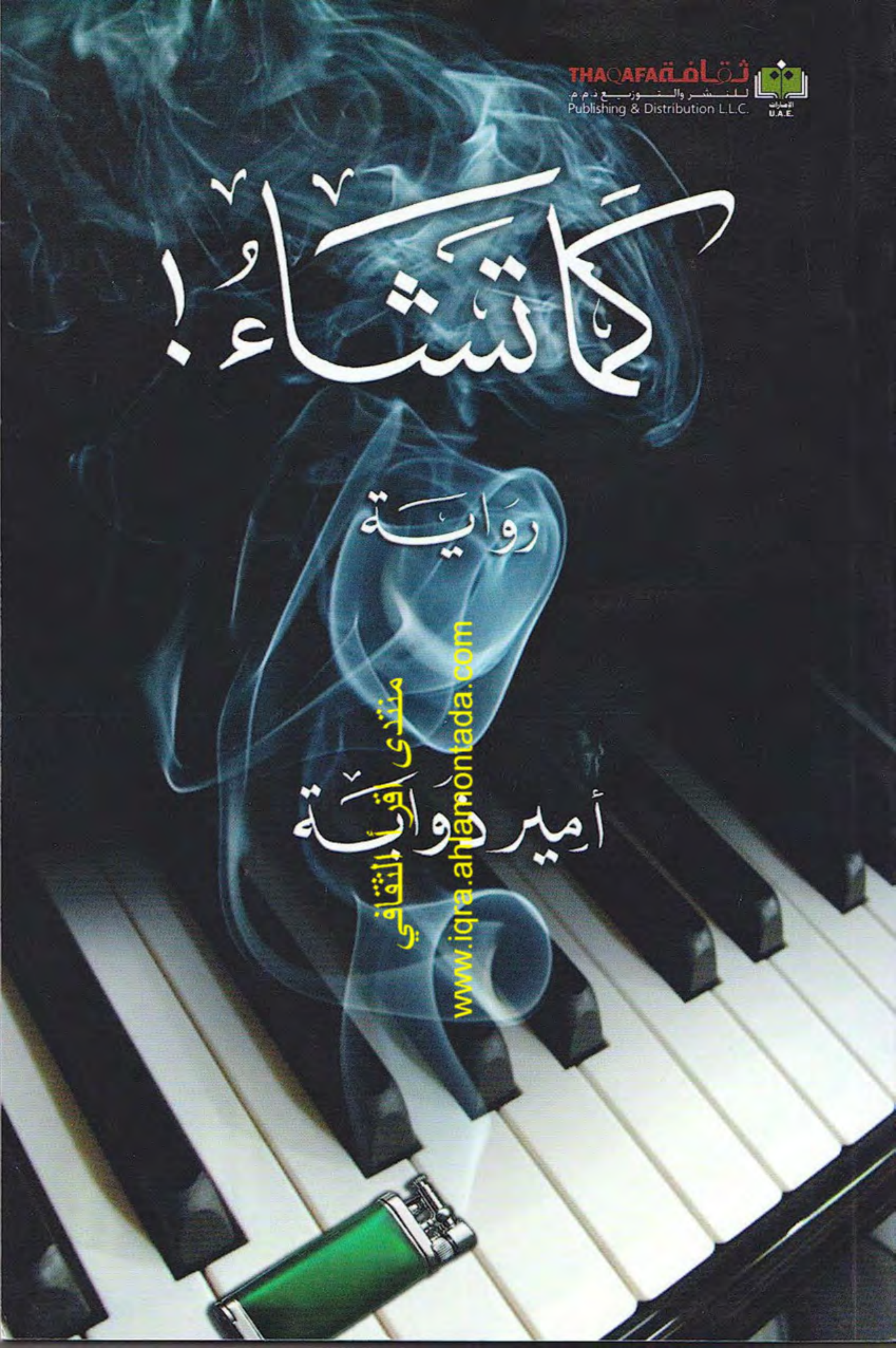

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.
كما تشاء!
رواية
أمير رواية
منتدى اقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com

كما تشاء!



رواية

أمير ذوابة





الطبعة الأولى
1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-9948-446-41-5

THAQAFA ثقافة للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E

أبوظبي هاتف: 6345404 (2-971+) فاكس: 6345407 (2-971+)
دبي هاتف: 2651623 (4-971+) فاكس: 2653661 (4-971+)
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

الإهْدَاء

إلى من أيقظ في حياتي صحوَها النائم

إلى صديقي «زيد عبد الدايم»

مُقـــدِّمـــة

لا أصنّف نفســي ككاتب، ولكني قد وصلت لمرحلة، شـعرت فيها بأنه قد أصبح واجباً علي أن أكتب رسالة إنسانيّة، أقصّ فيها ما يجول بخاطري من شـعور بطمسٍ كبيرٍ لمواهب الكثير من الشـباب أياً كانت، وعدم إعطائهم الفرصة ليس لتقييم إبداعاتهم وحسب، بل لا أبالـغ إذا قلـت بـأن الأمـر قد وصل إلى عدم النظر فيها ولا حتى محاولة معرفة شـيء عنها، وإن حدث، لم يكن إلا لاقتناص فرصة جيّدة للإسـتهزاء بالشـيء الذي جيء به، ومحاولة جعله كممسـحة مضى على تعفّنها عقد من الزمان.

فـي رحلتـي مع هذا النص، تخيّلت نفسـي جالسـاً بين صحبي ورفـاق دربـي، أقـصّ عليهـم وأحدثهـم بما يجول بخاطـري؛ لذلك تجدنـي أُقحـم نفسـي فـي الحديـث هنـا وهناك مـن دون «إحم ولا دستور»، وعلى الرغم من أنني علمت وبعد الإنتهاء من الكتابة، أن علـى الروائـي أن لا يتدخـل في سـير أحداث الرواية، إلا أنني أبيت إلا أن أبقيهـا كمـا هـي، ليس تقاعسـاً عن مزيـد من العمل؛ فللكتابة عندي لذّتها الخاصة، ولكن السـبب يكمن في رغبةٍ جامحة عندي، بـأن يشـعر القـارىء بأنه أحد أصدقائي وأحبتـي الذين التفوا حولي؛ لأنقل إليهم بشكل خاص ما جدّ لدي.

أمير ذوابة

فكّر وفكّر كثيراً، «ماذا سيكون موضوع

القطعة الموسيقية التالية؟!»

الفصل الأول

-1-

لم يكن في مزاجه المعتاد حين أفضى إلى آلته الموسيقية، وبدأ بغزل نغماته التي لم يدرِ من أين تاتي ومن أين تروح، نغمات هي ما خطر على بال ذلك الطفل الذي لم يتجاوز سنّه الرابعة عشرة، عندما عاد من السينما وكان قد شاهد فيلم «Amadeus»، حيث لمس فيه عظمة الموسيقى وعظماءها.

- أريد أن أتعلم العزف على البيانو!
- لماذا؟ أليس العود يُعجبك؟ (قال الوالد مازحاً).
- بل يعجبني كثيراً، ولكني أريد أن أتعلم العزف على البيانو!

«فقد شعرت بعظمة هذه الآلة الإلهة، ولن يغيب عن ناظريّ منظرُها، ولن يكف رنين مفاتيحها عن طرق أذنيّ.» (قال في قرارة نفسه).

- أريد أن أتعلم العزف على البيانو، أرجوك لا ترفض لي هذا الطلب! (قالها الطفل ملحاً بنبرة المستعطف).
- تريد أن تعزف على البيانو! (مربتاً على كتف ولده وتابع): حسناً، سأرسلك إلى الأستاذ «محسن»؛ لتتلقى دروساً في العزف على البيانو، لكن ليس قبل أن تتقن معزوفة «توتة» التي بدأنا بها منذ شهر.
- لا يا والدي، أريد أن أذهب غداً!

- اعزفها كما يجب، وستبدأ رحلتك في البيانو، ذلك البحر الذي أتمنى أن تنهل منه ما يكفي لتروي ظمأك الذي لم أعد أشك فيه، بل أصبحت متأكداً منه بعد أن توقفت رغبتك عن إتقان معزوفة فريد الأطرش، منذ عدتَ من السينما قبل أسبوعين.

في غضون يومين، لم يدرِ الطفل كيف أنهى «توتة»، وكيف تورّمت أصابعُه في محاولة إتقانها بالطريقة التي يريدها أبوه.

- هل سنذهب غداً إلى الأستاذ محسن يا والدي؟ (قالها وقد بدت علامات البهجة واضحة على وجهه البريء).
- إن شاء الله، هل أنهيت دروسك وإنجاز وظائفك يا بني؟
- نعم، ولم يتبق شيء.
- حسناً، إذاً صلّ العشاء ونم!
- حاضر.

لم تكن تلك الليلة كباقي الليالي؛ بل كانت ليلةً من أزهى ليالي العمر في حياة ذلك الطفل الحالم بيوم أفضل، وعصر ذهبي جديد مع الآلة الجديدة التي سيتعلمها، ويطلق العنان لمشاعره وأحاسيسه لكي تنصهر بين مفاتيحها.

- فضل فضل! قم يا بني؛ فوالدك ينتظرك خارجاً لتذهب وإياه إلى الجامع.
- حسناً يا أمي، ها أنا أقوم.

أفاق «فضل» من نومه العميق، بعد أن كان مستغرقاً في حلمه، متخيلاً فيه شكل ذلك الأستاذ الذي سيذهب به والده إليه، وكم من الوقت سيستغرق ليضرب بأصابعه لأول مرة معزوفة «ضوء القمر»

كاملـة؛ ليشـعر بالرّقـي والكمال الروحانـي، اللذَين أحس غالباً بأنهما لا يساويان شيئاً من دون وجود آلة البيانو ومعزوفات تشايكوفسكي وهاندل وبيتهوفن وموتزارت، وغيرهم من عظماء ملوك الموسـيقى الذين تمنى دائماً التماساً ولو بسيطاً من حيواتهم؛ حيث كانوا دائماً بنظـره، هـم أنبيـاء اللـه ورسـله على الأرض؛ الأمر الـذي دفعه لأن يكـرّس يوميـن متتاليـن في إقناع والده الذي رفض في باديء الأمر فكرة أن يذهب ابنه إلى السينما، تلك التي بنظره بؤرة فسق وخراب ليس إلا.

- هيا يا بني، توضأ واستعد للصلاة!
- حاضر يا والدي! لكن اليوم، متى سنذهب للأستاذ محسن؟
- لا تكن لحوحاً يا بني، سنذهب بعد صلاة العصر إن شاء السميع العليم.

لـم يكـن فضل ممن يكرهون والدهم، ولكنه كان ينتقده كثيراً، وكان يتمنى لو أن أباه أكثر انفتاحاً وأقل عصبية مما هو عليه؛ فمع أن والـده يعـزف علـى العـود، إلا أن تزمّته الديني يـكاد يخنق ولده المدجـج بالأحـلام والأمنيـات، تلك التي كثيراً ما أدّت إلى سـخرية زملائـه منـه فـي الجامعـة، بـل تعدى الأمـر إلى الدخـول في عراك مـع بعضهـم؛ دفاعـاً منه عن أحلامه وأمانيه التـي كثيراً ما كان يراها ويتصوّرها وقوداً يدفع عجلة حياته؛ ليمضي بالرغم من كل ما يواجه من صعوبات وحواجز تحدّ من مجرد أن يحلم ويتطلع.

دخـلا المسـجد، ولـم يكـن يـدور في رأس الطفل سـوى: «ما شكل هذا الأستاذ؟ ومتى سنذهب إليه؟ وأين يسكن؟ وهل سأواجه

صعوبات في تعلم العزف على هذه الآلة؟» أسئلة كانت لها الغلبة في تأخّر فضل عن التسليم في الصلاة؛ الأمر الذي دفع والده إلى نكزه ليسلّم.

أحسّه كعام ذلك اليوم الدراسي الذي ما كان سينتهي، وأحسّه كعيدٍ رنين جرس انتهاء الحصة السادسة والرجوع إلى البيت؛ ليختلي بعوده ويداعب أوتاره التي كثيراً ما كانت نغماتها تدبّ الروح في ساعات يومه الطوال، متغلباً عليها بعزف تقاسيم لفريد الأطرش، يشعر من خلالها بوجود جده «عبد الله»، ذلك الشخص الذي يراه نعمة أنعم الله بها عليه؛ بأن كان الشخص الذي علّم والده العزف على آلة العود، والتي فتحت له طريقاً في الموسيقى، ومنها سيبدأ رحلته مع البيانو إن شاء الله.

«رحمك الله يا جدي، فكم كنت راقياً وسديد الرأي في تعلم العزف على العود، في الوقت الذي كان التزمت الديني متجذّراً في هذه البلدة التعسة.» (قالها بشيء من الأسى الممزوج بأمل كبير).

- فضل فضل! هلم إلى الغداء.
- لا أريد، شكراً؛ فقد أكلت في المدرسة وأنا لست جائعاً يا أمي.
- على راحتك يا بني، ولكن رجاءً، توقف عن العزف قليلاً؛ حتى تنام أختك «بتول».
- حاضر!

لقد كان شخصا مطيعاً جداً لها، وكثيراً ما كان يتوقف بينه وبين نفسه، متخيلاً ثقل الهم والمسؤولية الملقاة على عاتق أمه «سلوى»،

لـم يكـن يرفـض لهـا طلباً، كان يحترمها ولا يتهـاون في رفع صوته أمامها مهما حصل.

أذّن العصر وحان وقت الصلاة، لم يكن هذا ما يدور في عقل الشـاب الصغير، بل لقاؤه مع الأسـتاذ محسـن هو ما كان يشغل باله كليّاً ليومين.

-2-

مجهشاً في بكاءٍ هستيري، متقولاً بعض الكلمات التي لم تستطع أمه تحليلها، يخرج من المنزل إلى الشارع محاولاً مداراة علامات البكاء على وجهه، بخطى سريعة وقلب كسير، وصل إلى بيت صديقه «أحمد».

- أحمد أحمد! (بصوت لم يستطع التعب أن ينسلّ منه).
- من؟ فضل! دقيقة واحدة وأنزل إليك.
- مرحباً، كيف حالك يا صديقي؟
- أهلاً وسهلاً بالعازف الكبير، كيف حالك؟ يبدو على وجهك التعب، ماذا حصل؟
- ما حصل هو السيناريو السنويّ لكل عام؛ فلا يمكن أن يمضي عام إلا وتحدث فيه مشكلة مع والدي.
- وماذا حصل؟
- حصل ما لم أتمن أن يحصل أبداً.
- ماذا؟ (بصوت بدت فيه نبرة المفاجأة والترقّب).

«لن نذهب اليوم إلى محسن، سنذهب إلى الجامع وبعدها سأذهب مع بعض الأصدقاء لزيارة صديق لنا عاد من الحج.»

قالها والده بنبرة كان لها الوقع اللازم ليتأفّف فضل ملحقاً تأففه بركلة كانت كافية لكسر العود، كان صوت انكساره كخنجر غرِز في

قلب الوالد، وبطريقة لم يفكر فيها، صفع وجه ابنه ليقع على الأرض كاسراً معه مشكاةً هي آخر ما تملك الزوجة من أثر أمها.

- اهدأ يا رجل وصلّ على النبي، كل شيء سيحل بهدوء وروية.
- اسـكتي أنت الأخرى، فهذا الولد بحاجة إلى إعادة تربية من جديـد؛ لكـي يتعلـم كيف يتحـدث الأبناء مع آبائهـم، لا تدافعي عنه وإلا رأيتِ تصرفاً آخر!

لـم تكـن صفعـة والده أكثر حدةً على نفسـه مـن كلماته التي ألقى بها على أمه؛ فقد شـعر بتأنيب ضمير بأنه السـبب في جعل أبيه يتحدث لأمه بتلك الطريقة، والتي تمنى لو فاضت روحُه ولم يرهـا تقـف فـي هـذا الموقف الذي لا هو ولا هـي، يملكان جرأة الـرد علـى هذا العنف الأبـوي غير الجديد؛ فلن يغيب عن ناظريه منظرُ أبيه وهو يلقي بالطعام من شرفة المنزل؛ لأن الأكل لم يكن مملحاً كفاية.

كل هـذا وذاك، كان لـه نصيـب فـي جعل هذا الشـاب الصغير متمرداً بينه وبين نفسـه، مختنقاً، كارهاً لما يدور من حوله، غير آبه بأهمية الدين الذي رآه متمثلاً في شخصية والده.

استغرق في بكاء عميق كان الحلّ الأوحد لكي يفرغ ما ملأ به والـدُه نفسَـه مـن تأنيب ضمير، إلا أنه لـم يلجأ يوماً إلى رفع صوته بوجه أبيه، صحيح أنه خانق في بعض الأحيان، إلا أنه كريم وطيب في أغلب الأحيان؛ فقد كانت هدية العود من والده أكبر دليل على محبته وكرمه، ولكن تزمته الديني وعصبيته يبقيان الحاجز الذي يبدو أنه لا يريد أن يزول على خير.

أفاق سريعاً من أفكاره وذهب مسرعاً إلى والده، متأسفاً لما بدر منه من قلة أدب وسوء تصرف، ولم يكن من والده إلا أن خرج مغلقاً الباب بقوة هزّت جسد الطفل الهزيل، فعاد إلى بكائه الذي لم يزل عالقاً على وجهه، ليجد أمه مربتة على كتفيه قارئة بعضاً من آيات القرآن الكريم؛ محاولة تهدئة طفلها الذي لم تستوعب رؤيته على هذا الحال.

- ألا تريد أن تصبح عازفاً على البيانو؟ (قالت).
- بلى! (وقد بدت علامات الحزم واضحة عليه).
- إذن، وهل ستسمح لظرف سخيف مثل هذا، أن يهزّ حلمك الذي لم ترَ منه شيئاً بعد؟

«لم أستطع أن أتمالك أعصابي التي شعرت بتشتتها على الرغم من مواساة أمي لي، فقد أبيت إلا أن آتي إليك؛ فلم أتمالك نفسي بأن أرى والدتي تواسيني بعد كل هذا التعب من أعمال المنزل من جهة، وأختي الصغيرة من جهة، وفلاحة الأرض من جهة ثالثة.»

- اهدأ ولا تزعج نفسك؛ فكل شيء سيعود كما كان وأفضل، وسيسامحك والدك على ما فعلت.
- كيف، وأنا كسرت أغلى ما لديه؟
- صحيح أن والدك عصبي، ولكن طيبة قلبه أكبر وأوسع من أن يظل منزعجاً من ابنه الذي اشترى له عوداً جديداً؛ هدية على نجاحه المتميز.
- وما الفائدة؟ فلن أرى شيئاً بعدما كسرت عوده.

- هذه ليست بالمشكلة الكبرى، فلا تنسَ أنه فضّلك على نفسه، واقتصد في شراء الكثير من المستلزمات الضرورية؛ كي يجمع نقوداً ليأتيك بعود، وهو يتكبد عناء تعليمك الكثير من المعزوفات، الأمر الذي يستهلك منه الكثير من الوقت بدلاً من أن يقضيه في المزرعة.
- صحيح. (قالها فضل بحزن عميق).
- ولا تنسَ أنك ابنه الوحيد، وإن شاء الله، لن يطول غضبه عليك، وأنت الآخر سامحك الله، فما كان يجدر بك أن تتصرف بتلك الطريقة.

كان أحمد يكبر فضل بثلاث سنوات، وبالرغم من ذلك، كانا من أكثر الأصدقاء تفاهماً؛ فأحمد كان عازف (جيتار) موهوباً جداً، تعرّف عليه فضل في إحدى المسابقات التي تُجريها مديرية التربية والتعليم في محافظة طولكرم؛ حيث كانا ممثلين عن مدرستين من مدارس بلدتهم في إحدى المسابقات الفنية التي تنظمها المديرية كل عام.

لم يحدث قطّ أن تشاجر أحمد مع صديقه الصغير؛ فقد كانت اللغة التي يتحدثان بها غالباً هي لغة الموسيقى والألحان، فنادراً ما تجدهما يتسكعان في متنزه البلدة أو جالسين في إحدى المقاهي؛ فقد كان يكفيهما أن يصطحب كل منهما آلته الموسيقية، ويذهبا سوية إلى الخلاء، ليحتسيا كأسين من الشاي مع (زعتر البلاط) الذي كثيراً ما كان يخرج فضل إلى جبال البلدة ليقطفه، فيبيع غالبيته، ويحتفظ بما يكفي العائلة لأسبوعين، فكان يضرب عصفورين بحجر واحد

كما يقول المثل، ولا ينسى جمع زهور شقائق النعمان؛ لتغزل منها أمه حلقة تزين بها عنق طفلتها بتول.

هذا ليس ضرورياً، لنبقَ في المهم!

-3-

مرتدياً ثياباً يبدو أنه لم يبدّلها طيلة عمره، بشعره المنفوش، حاملاً غليونه الذي ينفث دخاناً كما القطار، فتح باب داره التي زيّنت جدرانَ غرفها صورُ الموسيقيين وكل ما يخطر ببالك من آلات موسيقية، تحف لكلّ ما يمت للفن والموسيقى، صورة فريد الأطرش محتضناً عوده الذي كُسِيت قصعتُه بالزخارف والنقوش، وصورة لأم كلثوم تقف كالهرم، وصورة للعندليب بشعره الأسود المسدول فوق جبهته السمراء، وصورة أخرى لفيروز، لمح بعينيها مدينة القدس باكيةً تشكو مرارة الوجع.

جلس فضل على كرسي البيانو وكأنه العرش الملكي، بدأ بعزف نغمات نشاز شعر بأنها سيمفونية أحلامه التي لا تريد أن تقر ولا أن تهدأ، أحلامٌ تكبره بقرون، أحلام ليس لعاقل أن يفكر لحظة فيها، ولكن ما العمل؟ هكذا زرع الله هذا الشيء في نفسه، ولا يمكن لأي كائن من كان أن يقدر على خدشه.

متحدياً كل ظروف الطبيعة والمنطق، يريد أن يحلّق بحلمه كالنسر، لن يسمح لشيء أن يهزّ عزمه وعزيمته، لن توقفه عاصفة الواقع ولا زوابع الأيام، لن ينتظر المستقبل بل سيطير إليه؛ متحدياً أنياب الزمان وغدره. سيسيطر على كل تمرد، سيحلّق بنغماته في أعالي السماء، سيغدو يوماً علماً من أعلام هذا الكون الموسيقي،

الذي بات الآن واقعاً بعد دخوله منزل الأستاذ محسن.

- ما هذا العزف الجميل؟ (يقول الأستاذ محسن ممازحاً تلميذه الصغير).
- أريد أن أعزف وأعزف!
- سأعلمك يا بني، ولا تفكر بأن هذا الشيء يسير.
- علّمني ولا تقلق.
- قم وانظر إليّ يا فتى.

جلس الولد جانباً، وأخذ يراقب الأستاذ محسن وهو يدخن من غليونه الذي أبدى إعجابه الشديد به، وتخيّل نفسه بمظهر أستاذه يدخن ويعزف ما يشاء من الموسيقى، فقد كان هذا كافياً ليشعر الصبي بأنه ملك العالم.

هي «ضوء القمر»، أحس بنغماتها تنخر عظمه، أحسّ بالأمان والسمو والعظمة والرفعة، لم يتبادر إلى ذهنه لحظة أن يحيد بنظره ولو بلمحة عن منظر يدي الأستاذ محسن وهو يداعب مفاتيح البيانو، والتي أصبح واضحاً من عزفه أنهما صديقان قديمان، متفاهمان إلى أبعد مما تتخيل.

فاتحاً فوهة فمه الصغير، متعطشاً إلى المزيد والمزيد، يتخيل حاله لو لم يسمح له والده بالذهاب بعد المصيبة التي اقترفها، والتي ستكلف والده انتظار وقت كبير ليصلح وجه عوده، فتمنى لو أن حجم عوده مناسب لوالده؛ فهذا سيخفف عنه، ولكن ما الفائدة؟ فعوده المصنوع على حجمه الصغير، لا يناسب حجم والده الكبير.

ينهي الأستاذ محسن المعزوفة ويتبعها بضحكة رقيقة، فيقفز

فضل من على كرسيّه ليطبع قبلة على خدّ هذا الشخص المعجزة؛ لقد كان منبهراً مما سمعه، متلهفاً للتعلم، فاتحاً عينيه بفرح وهو يمعن النظر في هذه الآلة التي تخيّلها كإمبراطور يتربع بكل عظمته، فارضاً احترامه على كل من يقترب منه.

- متى سنبدأ يا أستاذ؟
- لا تكن عجولاً يا فتى، إن شاء الله في الأسبوع القادم.
- ولماذا كل هذا الوقت؟
- ذلك لأنني منشغل في تأليف موسيقى لأحد المسارح في لندن، وعليّ أن أنهيها في هذا الأسبوع على الأكثر.
- إذن! الأسبوع القادم هو موعدنا؟
- إن شاء الله.

على جرّار والده عادا أدراجهما إلى المنزل، حيث كان والده مبتهجاً لما رآه من بهجة في عيني ولده الذي لم تفارق ابتسامتُه وجهَه طيلة الطريق إلى البيت، لقد كانت الفرحة تغمر وجهه الصغير؛ فالأستاذ مرحٌ جداً، ويحب المزاح كثيراً، كثيراً وإلى أبعد مما تتخيل، وسيعلمه العزف على البيانو، لكن الوالد كان متخوّفاً من أن يحيد ولده عن الإلتزام بالدين، فبالرغم من انفتاحه وتفكيره الليّن من وجهة نظره الخاصة جداً، إلا أنه يرى في الدين شيئاً لا يجب التهاون فيه؛ فهذا ما ورثه عن أبيه الذي كان يرى فيه مثالاً للرجل القويم الملتزم، وأيضاً العازف البارع الذي ورّثه العزف على آلة العود، تلك الآلة الشرقية الأصيلة، ولم يغب أيضاً عن بال ذلك الجد أن ينقل لحفيده فضل، كل ما ألمّ به من تاريخ العود وشرقيته وأصالته.

بيد أنه لم يتعلق كفاية بالعود، بالرغم من حبه الشديد له؛ حيث أن موسيقى السيمفونيات الغربية، هي ما سيطر كلياً على ذهن ذلك الطفل الذي كثيراً ما تخيّل نفسه قائداً لأوركيسترا، يسيطر بحركاته على نغماتها.

ربّما كان حبه الشديد لأن يصبح علَماً كبيراً عالمياً، هو ما قاد قلبه وأحاسيسه للفن الغربي؛ فلم يسمع كثيراً أنّ الموسيقى الشرقية أصبحت عالمية، ولا أنّ موسيقيين عرب صاروا عالميين، فعلى الرغم من كل ما تعنيه الموسيقى الشرقية له، وعلى الرغم من جمالها وعظمتها، إلا أنها لم ترتقِ للعالمية كما السيمفونيات حسبما كان يعتقد، لم ترتقِ لتصوير الحس البشري أو الطبيعة في نغماتها، فسيمفونية «الفصول الأربعة» كانت بالنسبة له، أسطورة صوّر فيها «فيفالدي» فصول السنة بأرقى لغات العالم وأبلغها، ألا وهي بلا شك «الموسيقى».

داوم على دروسه عند الأستاذ محسن، تقدّم في التعلم لدرجة أصبح فيها قادراً على عزف شيء من نغمات ضوء القمر، تلك التي ينتظر اليوم الذي تغزل يداه نغماتها على تلك الآلة الغربية العظيمة.

- لقد تعلمت السلم الموسيقي وأتقنته بسرعة يا فضل، وها أنت قد بدأت تنسج النغمات ودون نشازٍ كبير، وهذا لا يعدّ إلا خطوة متواضعة في العزف على البيـ...
- وما الشيء المهم في العزف على البيانو يا أستاذ؟ (قالها مقاطعاً حديث أستاذه).

- لا تكـن عجـولاً يـا بنـي؛ فيوماً ما، سـتصبح عازفـاً ممتازاً إذا واصلت التعلم بجد.
- ولكن قل لي! ما هو الشيء المهم؟
- الأهم في العزف على البيانو، هو أن تتعلم عزف (الهارموني) مع النغمات الأصلية.
- وما الهارموني؟
- الهارومني: هو علم توافق الأنغام، وهو علم صعبٌ جداً، وبما أنك لا تقرأ النوتة، فليس المطلوب منك أن تدرسَـه، وسـأكتفي بتدريبك قدر الإمكان على عزفه فقط، فأنت تعزف سماعياً وهذا مهم جداً.
- مهم؟! (قالها فضل متهكماً).
- نعم مهم، ومهم جداً أيضاً؛ فكثير من الموسيقيين الأكاديميين لا يجيدون عزف ما يسـمعون، إذ أن كل ما يسـتطيعون التعامل معه هو ورقة النوتة فقط، وهذا شيء صعب وليس بالهيّن أيضاً، ولكن أن تعزف ما تسمعه دون الحاجة إلى قراءته هو شيء رائع أيضاً، إن لم يفُق قراءة النوتة.
- جميل! (يقولها فضل بشيء من المفاجأة والإرتياح).
- وأنت بخبرتك في العزف سماعياً على العود، أعتقد أنك تمتلك أذناً موسـيقية جيدة، سـتمكنك من عزف ما تسـمع على البيانو، ولكن هذا الشيء يحتاج إلى كثير من التمرين.

بعـد مضـي قرابة الشـهرين على بدء دروسـه فـي البيانو، يغادر فضل منزل أسـتاذه، متخيلاً ما سـيواجه من صعوبات ليتقن العزف

على هذه الآلة، التي يزداد إدراكه لصعوباتها كلما تقدم في دروسه التي تبرع بها الأستاذ مجاناً له؛ فبعد حصوله على فرصة لتأليف الموسيقى لأحد المسارح في لندن، شعر الأستاذ محسن بأن حلمه بالعالمية بات قريباً، ولا مانع من نقل شيء من علمه الواسع في هذا المجال لطفل حالم بالعالمية أيضاً، خاصة أنه وأباه صديقان قديمان.

-4-

دخل في عامه السادس عشر، ولم يكن قد تعلم من البيانو إلا القليل، لم يتقن العزف كما كان مخططاً من قبَل الأستاذ محسن.

«فإتقان العزف على البيانو، ليس بالشـيء اليسـير ولا السـهل، تدريب ثماني ساعات يومياً على هذه الآلة لفترة طويلة «قد» يجعل من الشخص عازفاً محترفاً، فكيف بك وأنت لا تتمرن إلا في الوقت الذي تجيئني به كل ثلاثة أيام فقط؟».

آخـر شـيء قالـه الأسـتاذ محسـن قبـل أن يهمّ بترتيـب حقائبه استعداداً للسفر، كل حرف من حروفها كان رصاصة اخترقت قلب فضل البريء، عاقدة همّة وعزيمة جديدتين، لن تسمحا لأحلامه أن تضيع مهب الريح.

بالنسبة للوضع الإقتصادي لعائلة السيد «مصطفى» والد فضل، لا يحتمـل شـراء بيانـو يصـل سـعره إلى عشـرة آلاف شـاقل، فعود لـم يتجـاوز ثمنـه ألف شـاقل، تكبد والده ولأشـهر، توفيـراً وتقتيراً لمسـتلزمات المنـزل حتـى اسـتطاع تأميـن ثمنه، فكيف بآلـة بيانو؟! بالتأكيد سيتطلب الأمر تقتيراً لعشر سنوات، وهذا أمر غير معقول أن يتسبّب بإنهاك العائلة توفيراً لثمن بيانو، ولو وافق والده -ومستحيل أن يوافـق- فلـن يأتـي إلا بعد عشـر سـنوات على الأقـل، وهذا أمر

مستحيل أن يظل منتظراً طيلة هذا الوقت من دون وجود بيانو في بيته، فما الحل؟

يريد أن يعزف ويعزف، يريد أن يشعر بأنامله الصغيرة تنساب كما المياه فوق مفاتيح البيانو؛ فكم آلم صدره عدم تمكنه من عزف الهارموني بإتقان خلال العامين الذين قضاهما في دروس البيانو، ذهاباً وإياباً من وإلى طولكرم، يوفّر من مصروفه الخاص ثمن مواصلاته التي كان يشعر بينه وبين نفسه، أنها حلقة الوصل بين واقعه كعازف عود في بلدة صغيرة تعسة، وبين أحلامه التي تعدّت حدود الخيال لتصل إلى أفخم دور العرض في لندن وغيرها من العواصم.

«عندما نعزف الهارموني، فإننا نقسم تركيزنا إلى قسمين اثنين: الأول يعمل مع اليد اليمنى والآخر مع اليد اليسرى، حيث أن اليدين في هذه الحالة، تكونان تعزفان نغمات مختلفة، تتوافق في ما بينها في نفس الوقت، مولّدة جملاً موسيقية متناغمة، وهذا أمر صعب للغاية؛ فأنت لتتقن عزف هذا، بحاجة لأن تقضي ساعات طوال في التدريب اليوميّ على البيانو».

- كم هو صعب يا صديقي هذا الشيء؟ فكلمات الأستاذ محسن لا تزال شبحاً يطاردني مذ أخبرني بهذا، والذي يزيد الطين بلة، هو أنني لا أملك المال لشراء بيانو.
- لا تقلق! فبدل أن تمتلك بيانو، ما رأيك أن تشتري «أورجاً»؟
- لكن شتان ما بين البيانو والأورج يا أحمد!
- أعرف، ولكن أن تشتري بيانو في هذا الوقت أمر شبه مستحيل؛

لارتفاع ثمنه، أما الأورج فيمكن أن يكون بديلاً عنه؛ فلكل منهما مفاتيح يمكن أن تتدرب من خلالها على الهارموني هذا الذي أتعب تفكيرك.

- معك حق، إذن وما العمل الآن؟
- سأتحدث إلى صديقٍ لي يمكن أن يساعدنا في اقتناص أورج جيد بسعر زهيد.
- إذن، توكلنا على الله يا أحمد.
- إن شاء الله.

«والد فضل لا يملك المال لشراء أورج لابنه، أما فضل، فلا يمكن أن يظلّ من دون مفاتيح يمرّن بها أنامله الصغيرة كي يصبح موسيقياً عالمياً في المستقبل».

قبل أن ينهي الشاب الصغير آخر امتحان نهائي، هذا ما كان يسيطر كلياً على تفكيره؛ الأمر الذي جعله في ريب من النتيجة التي سيحصد بعد أسبوعين، ولكن ما الفائدة من كل هذا؟ فهذا لن يغير من الواقع شيئاً «هو يريد أورجاً ليتدرّب»، لذلك إن العمل الآن، هو البحث عن وسيلة لجني مال لشراء واحد.

في عطلِه الصيفية سابقاً، غالباً ما كان يقضي الوقت في مساعدة والده في المزرعة، وأيضاً مع صديقه أحمد؛ فقد كانا يعزفان معاً الكثير من الأغاني والألحان، الشرقية منها والغربية، وكثيراً ما كان فضل يعزف تقاسيم أغنية «عش أنت» لفريد الأطرش، تلك التي كانت تستدعي أن يترك أحمد جيتاره جانباً؛ لينتشي بنغمات تلك التقاسيم الأسطورية مع منظر البلدة وقت غروب الشمس؛ حيث كان

الجوُّ يُحاط بهالة رومانسية تقتل الوقت وتشرح الصدر.

أما الآن وفي هذه العطلة، فقد أصبح محتماً عليه أن يبحث عن عمل يؤمن به ثمن الأورج الذي أصبح وجوده ملحاً.

بعد أن ظهرت نتيجته، والتي لم ترض والده الذي أرجع سبب تراجعه الدراسي إلى قلة الدين وتقطع الصلاة، أصبح فضل غير مكترث كثيراً بالصلاة والصيام؛ فقد بات كثيراً ما يتمرد على أبيه؛ محاولاً كسر كل الحواجز التي كانت تمنعه من الرد عليه، لقد أصبح أكثر جرأة في مواجهة والده الذي كثيراً ما كان يلح عليه ويرغمه على الصلاة.

أخيراً، وجد عملاً في مصنع الشوكولاته في البلدة، كان يعمل دورتين في اليوم؛ ليكسب مالاً أكثر؛ ليتمكن من شراء الأورج في أسرع وقت ممكن، عمل ليل نهار مقسماً وقته في المصنع لكسب المال، وأيضاً في مزرعة والده أحياناً، يساعده في الزراعة وجني المحصول الذي تكسب من خلاله العائلة المال لسدّ حاجاتها.

أنهى عمله من المصنع بعد شهر واحد؛ حاصلاً على ألفي شاقل، في هذ الوقت، كان أحمد قد أنهى امتحاناته النهائية لعامه الأول في الجامعة. اتصل فضل بصديقه الذي كان قد تحدث إلى صديق له، تمكن من خلاله من التعرف على متجر لبيع الآلات الموسيقية في بيت لحم.

- مرحباً.
- أهلاً بالعازف الكبير.
- كيف الحال والأخبار؟

- الحمد لله، الأخبار عندك!
- هل أنت جاهز غداً؟
- نعم أنا جاهز، ولكن لِمَ؟
- اليوم أنهيت عملي في المصنع، وسنذهب غداً إن شاء الله إلى بيت لحم، هل أنت مستعد؟
- أنا على أتم الإستعداد يا صاحبي.

الطريق إلى بيت لحم استغرقت ساعتين، أحسّ بهما فضل بفرحة فاقت فرحته وقت جاءه والده في الليل ووجده في حالة يرثى لها، فأوضح له أنه لم يغضب لكسر وجه عوده، بل لاستيائه من تصرفه الذي ما كان يصحّ أن يتصرفه ابن مع أبيه، ربّت على كتفيه وأخبره بأنه سيذهب غداً لحراثة أرضٍ في طولكرم، ووعده بأن يصطحبه معه إلى بيت الأستاذ محسن؛ ليبدأ رحلته مع البيانو.

وصلا بيت لحم، كان الجو مشمساً والسماء صافية والناس تملأ شوارع المدينة، سألا عن مكان المتجر فدلّهم أحدُهم، توجها فوراً إليه فوجدا نفسيهما واقفين وسط جمع من الآلات الموسيقية من شتى الأنواع والأحجام، لفت انتباه الشاب الصغير منظر البيانو يتربع وسط المتجر بهالة مقدسة، وبشكل لا إرادي، بدأ يتحسس مفاتيحه وأجزاءه.

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام
- نريد أن نشتري أورجاً.
- تفضلا وحددا ما تريدانه.

اصطحبهما صاحب المتجر إلى الطابق العلوي، ليجدا نفسيهما بين جمع غفير آخر من الآلات الموسيقية، فيشد انتباه الشاب الصغير منظر بيانو آخر، وبسرعة يقاطع حديث صاحب المتجر الذي كان مستغرقاً في شرحٍ عن الأورجات التي لديه.

- بكم هذا البيانو؟
- هذا البيانو بخمسين ألف شاقل.

يفتح فمه متعجباً من سعره الذي لو امتلكه، لما تردد لحظة في شراء هذه الأسطورة التي تقف أمامه بكل شموخ ورفعة.

- هل استغربت من ثمنه؟
- آه؟! لا، نعم استغربت كثيراً.

يبتسم صاحب المتجر ابتسامة رقيقة، دلّت على سعة صدره وودّه الذين تجليا في طريقة التعامل الراقية، والتي لم يكن يتوقع فضل أن تكون بهذا الرقي الذي لم يسبق أن رآه، وهذا ما لوّح بفكره أن الموسيقى تصبغ كل من يتعامل معها بصبغتها التي هي أرقى وأسمى مما يتخيل المرء.

- لكن عفواً، أهذا هو السقف الأدنى لأسعار البيانو؟ (قال فضل).
- بالطبع لا، فهناك ما هو أقل بكثير وما هو أغلى بكثير، وهناك من الأسعار ما لا يسهُل تصديقه.
- وبالنسبة للأورجات، ما أسعارها؟
- هذا بخمسة آلاف، وهذا بعشرة وذاك بعشرين، والذي في الزاوية ذاك بألفي شاقل.

- أظن أننا سنأخذ الذي في الزاوية.
- توكلنا على الله.
- وهل ستعطينا سعراً خاصاً؟ فنحن جئنا خصيصاً إلى هنا من طولكرم. (يقول أحمد مبتسماً).
- إن شاء الله لن تخرجا إلا راضيين.

لقد ابتاعا أورجاً وعادا أدراجهما فوراً إلى البلدة، أحسّ فضل بسعادة غامرة قلما شعر بمثلها؛ فقد أصبح الآن يمتلك أورجاً، وهو الآن سينصرف له قرابة الشهرين؛ فهي ما تبقى له من العطلة الصيفية التي سيبدأ بعدها مشوارُه مع المدرسة، بعد أن التحق بالفرع العلمي بمدرسة الشهيد عبد الرحيم محمود.

دعا صديقه أحمد لتناول الكنافة النابلسية؛ كحلوان على شراء الأورج الجديد، وفي السوق شاهد غليوناً معروضاً في أحد المحالّ التجارية التي تختص ببيع كل ما يلزم المدخنين، دخل مستحضراً في ذهنه صورة أستاذه محسن، الذي أعجبه منظره بصحبة غليونه النافث بالدخان كما القطار، لقد ابتاع واحداً مع ما يلزمه من تبغ وعلبة ثقاب، حرص جداً على إخفائهن عن والده الذي لو علم بهن، لكانت مصيبة لعشرة أعوام.

الفصل الثاني

-1-

- بكم اشتريت هذا الأورج؟ (قالها عابساً).
- بألف وثمان مائة شاقل.
- أتمنى ألا يُلهيك عن دينك وصلاتك.
- لا تقلق يا والدي.

أحسّ وقتها باختناق شديد لكثرة ما يلح عليه والدُه بالصلاة التي لم يعد مواظباً عليها؛ تمرداً على هذا الإلحاح الذي لا يقرّ ولا يهدأ.

- وأين كنت حتى الساعة الرابعة عصراً؟
- ذهبت أنا وأحمد لتناول بعض الحلوى.
- لا تنس صلاة المغرب.
- حاضر.

خرج والده من الغرفة، وكان فضل قد اشتاط غيظاً منه حتى الثمالة، فما كان منه إلا أن أخذ غليونه وتبغه وعلبة الثقاب إلى بيت صديقه أحمد، الذي كان مدخّناً أصلاً، وحاول كثيراً أن يجرّ صاحبه إلى هذه العادة؛ مدّعياً أنها تعطي شعوراً خاصاً يلهم الفنان المزيد والمزيد من الإبداع، بيد أن فضل لم يكن مقتنعاً بهذه الفكرة إلى الوقت الذي صار فيه إلحاح أبيه وعصبيته، فأساً اقتلعته من هدوئه ووقاره الذين كثيراً ما ميّزاه عن أقرانه.

- ما بكَ لا تجلس إلى أورجك الجديد؟
- لقد عكّر والدي مزاجي.
- ماذا حدث؟
- الصلاة، لا تنس الصلاة، واظب على الصلاة، لا تنم قبل الصلاة، الصلاة الصلاة الصلاة...
- يا رجل، أنت الآخر، لا تجعل من الحبة قبة ولا تنسَ أنه أبوك.
- أنا أعرف، ولكن تديّنه الممزوج بعصبية مرعبة هو ما يجعلني أختنق؛ حيث أن الدين لا يقول: «صلّوا، وعلى حالكم ظلّوا»، الدين غايته أسمى من ذلك بكثير يا صاحبي، فوالدي يعتقد أن المرء إذا صلّى قد أنهى ما عليه من واجبات، ولا يريد أن يفهم أن الدين قد أُنزل لتحسين تصرفات الناس، ولتذكيرهم بالقوة العظيمة المسيطرة، فرضِت عليهم الصلاة خمس مرات في اليوم؛ فالمرء حين يصحو، يستحضر عظمة الله وجلاله ويتذكر بأنه حاضر، وكذلك بالنسبة للظهر والعصر والمغرب والعشاء.
- اللهم صلّ على سيدنا محمد.
- عليه الصلاة والسلام.
- منذ متى أصبحتَ شيخاً يا صاحبي؟
- أنا لست شيخاً ولست شيئاً! ولكن الواقع يعلم الإنسان الكثير، وهذا الشيء قد خنقني وجعلني من أكثر الناس اقتناعا بأن الإنسان ليس صلاة وصياماً وقيام ليل، الإنسان هو ما يتصرف، والدين إنما جاء وسيلة لغاية هي الصلاح والإستقامة، فإذا كان الإنسان

لا يقطع فرضاً ولا يفطر يوماً، وكانت تصرفاته لا تتعلق بما هو منوط بالخير والصلاح، فصلاته وصيامه لن تغنيا عنه شيئاً عند الله. (قالها وهو يلهث من القهر).

- اهدأ يا رجل ولا تتعب نفسك! فكل شيء سيحل إن شاء الله.
- اسكت أنت الآن، واعطني الغليون والتبغ! (قالها مداعباً أحمد).
- تفضل غليونك وتبغك.

يتناول غليونه الجديد، ويضع فيه بعضاً من التبغ بمساعدة صاحبه الذي له خبرة في هذا المجال، يبدأ بتوليعه، فيجرع دخاناً أدى لاحمرار وجهه وقحة قوية، لكنّ هذا ما كان ليثنيه عن محاولة أخرى، ربما يتمكن بعدها من أن يصبح مدخن غليون ماهر؛ ليحاكي في ذلك مظهر أستاذه الذي كثيراً ما تمنى لو يصبح مثله، عازفاً ماهراً على البيانو.

متناولاً عود ثقابٍ جديداً مع محاولة أخرى لتدخين الغليون، أشعل التبغ وبدأ بجرع الدخان الذي أحسه كنارٍ تقتحم بلعومه الصغير. بعد جرعات عدة، أخذ يشعر بأن الغرفة تدور من حوله بلا محرّك، وأن صاحبه أحمد أخذ يتأرجح أمامه كما البندول. لم يتمالك نفسه، فرمى ما بالغليون من تبغ وقام ليغسل وجهه واعداً صاحبه بجيئة أخرى؛ ليتمكن من هذا الصغير الذي تخيّل نفسه من خلاله كما الأستاذ محسن.

- غداً لي رجعة إن شاء الله.
- وإلى أين أنت ذاهب؟ اجلس قليلاً بعد!

- اعذرني؛ فالأورج ينتظرني، وأنا لم أشبع منه قبل أن يأتي والدي وينغص عليّ جلستي، سلام!
- سلام! أنا بانتظارك غداً.
- إن شاء الله.

في طريق عودته إلى البيت، أحس بشعور يعتريه بأن هذا الأورج يخبيء له شيئاً، وأنهما عما قريب، سيصبحان صديقين حميمين، بالضبط كما شعر بصداقة الأستاذ محسن وآلته البيانو.

دخل غرفته وأغلق على نفسه الباب، وضع سماعات الأذنين وشغّل الأورج، ضغط على زر صوت البيانو، تأهب وكأنه مقبل على أمر جلل، أحسّ بروحه تسمو وتسمو حين ضغط على مفاتيحه وبدأ بمداعبتها، عزف بعضاً من ضوء القمر وغيرها مما علّمه أستاذه.

ضغط على زر الإيقاع، غيّر وبدل، استمع له بشيء من العجب، أحب أورجه الجديد، بدأ بالتعرّف على كل جزء فيه، استغرق منه هذا وقتاً ليس قليلاً، ولكن في ما بعد، كلما شعر بضيق، أفضى إليه كطبيب نفسي، يملك الترياق لحلّ كل ما يحلّ به من علة ومرض.

-2-

تعلـم العـزف وأتقنـه كثيـراً، بجهده الذاتي البحـت، تمكن بعد قضاء ما يقارب السنة، من أن يلمّ بجميع جوانب جهازه الموسيقيّ الجديد، تدرّب على الهارموني لمعزوفة ضوء القمر جيّداً، ولم يكن بوسعه التدرّب على المزيد من الهارموني؛ لأنه لم يدرسه باختصار، لكنـه أصبـح علـى علـم بـكل مـا يحتويـه الأورج، تعلـم الكثير عن الموسيقى، تمرّن على عزف الكثير من الأغاني والألحان، أصبحت نغمات السلّم الموسيقي تجري في دمه الذي ما يزال يغلي قهراً لما يُظهره والده استياءً من هذا الأورج التي أصبحَ همّه وشغله الشاغل.

قديماً، لم يتردد والده في تعليمه العزف على العود ولا إرساله إلى أستـاذ يعلّمه العزف على البيانو، أحسّ دائماً بشـغف ابنه الدائم للموسيقى، لم يتوقع منه يوماً أن يتهاون في الصلاة، أراده موسيقياً ملتزماً بدينه لا يحيد في طريقه عن الدين، أما الآن، ولكثرة ما يلح عليه بالصلاة، أصبح فضل يقتنص الفرصة تلو الأخرى ليتهرب منه، ووالده بدوره، لا يتردّد أبداً في تعنيفه وإبداء رأيه في الأورج الذي رأى فيه جهازاً مخرّباً لا يمتّ للموسيقى الأصيلة بشيء.

- طبلٌ وزمرٌ وخرابيط فارغة، أين هذا من العود الذي لم يعد ولدك يطيق؟!

لم تردف الوالدة بشيء واكتفت فقط بالصمت.

- أجيبيني! أليس هذا ما عودته عليه؟! دلالٌ ودلالٌ ودلالْ.
- يا رجل! ما الضير في أن يلهو ابننا بالشيء الذي يريده؟ فبدل أن يظلّ متسكعاً في الطرقات، ها هو يُفضي إلى الشيء الذي يريد ويحب، ألم ترِد أن تعلمه العزف على العود لأنك ترى في هذا شيئاً جميلاً وراقياً وليس حراماً؟
- نعم، العود ليس حراماً، أما هذا الشيطان الذي أصبح هم ابنك الوحيد، فهو قمة الحرام والخطأ! على أية حال، فهذه غلطتي أنا؛ فلم يكن عليّ أن أسمح له بإنفاق نقوده على شراء هذا اللعين، لكنّ إلحاحك المطوّل طيلة الوقت في المزرعة والبيت، هو الذي جعلني أحيد عن رأيي الذي ما كنت لأرجع عنه، لعن الله الوقت الذي علّمته شيئاً عن الموسيقى، سامحك الله يا والدي!

يستمع فضل إلى حديث والديه مستغرقاً في تفكير عمّا سببه لوالدته من إحراج، لم يكترث كثيراً لرأي أبيه؛ فقد أصبح كلامه لا يعني له شيئاً بعد كل ما رآه من عنفٍ في محاولة إطفاء شمعة حلمه، الذي يحس باقترابه كلما ضغط على مفتاح من مفاتيح أورجه، الذي وجد فيه حلقة وصلٍ ليصبح عازفاً يُشار له بالبنان.

يخرج من غرفته إلى بيت صاحبه أحمد، مصطحباً غليونه الذي بات شيئاً من متطلبات حياته؛ فقد أدمن على التبغ، ولا مفرّ من جلسة استرخاء مع صديقه الذي أصبح متخصصاً في هندسة الصوت، له من الخبرة في التسجيل والمونتاج الشيء الكثير.

مشعلاً الغليون مسترخياً على الأريكة، منتظراً يوماً آخر مع أورجه ليتعلم معزوفة غربية جديدة، أو أغنية من أغاني الزمن

الجميل؛ فلم يعد هناك الكثير من الوقت؛ فبعد شهرين ستبدأ السنة الدراسية الجديدة في الثانوية العامة - التخصص العلمي؛ فوالده يريده أن يصبح مهندساً عظيماً، رافضاً أية محاولة من ابنه وزوجته أن يدرس فضل في كلية الفنون الجميلة متخصصاً في آلة البيانو، فقد أوضح له والده بأنه لا يمانع في أن تبقى الموسيقى هواية عنده، أما أن تصبح تخصصه وباب رزقه الوحيد، خاصة بعد تعلقه الشديد بالأورج، فهذا ما عارض بشدة.

-3-

- لقد نفذ التبغ، ما العمل؟
- اسحب سيجارة وجرّبها، أظن أنها ستعجبك.
- سآخد واحدة؛ علّها تريح نفسي قليلاً؛ فكلام والدي لا يزال صداهُ عالقاً في أذنيّ.

أشعل أول سيجارة في حياته، تذكّر كلام والده:

«احذر من صديقك أحمد، صحيح أنه محترم ووالده صديقي، إلا أنني أخشى دائماً أن يجرك معه إلى طريق السجائر؛ فالتدخين يا بني، أوله لعبة وآخره نوبة، كن حذراً جداً ولا تعطه المجال ليتلاعب بقناعاتك.»

أحس بكلام والده يتجلى في غيمة دخانه، رآه نتناً قبيحاً، جرع ونفث المزيد والمزيد، أراد أن يطرده من أمامه، أراد أن يبتلع المزيد من الدخان؛ ليشعر بنفسه حراً طليقاً، غير آبه بما يقول والده الذي أصبح تسلّطُه لا يطاق ولا يحتمل.

استأذن صديقه وخرج، توجه إلى متجر وابتاع تبغاً، دخل غرفته الصغيرة، حان وقت صلاة العشاء، بدأ المؤذن ينادي «حيّ على الصلاة»، لم تخطر بباله الصلاة، أدار أورجه ووضع سماعات الأذنين وبدأ يعزف ويتمرّن، غاص في دوامة الأنغام، نسي الوقت، بل قتله بأصابعه التي لم تكف عن طرق مفاتيح الأورج الذي بات

وإياه صديقين حميمين، ظلّ يعزف ويعزف، أذّن الفجر، ولم تتوقف أصابعه عن ضرب الموسيقى.

مضى عام وشهران على وجود الأورج، وها هي العطلة الصيفية قد انتهت وفي وقت قصير. أفاق من نومه على صوت والدته التي عانت كثيراً في محاولة جزّه من فرشته؛ فقد كان صعباً عليه أن يصحوَ بعد ساعتي نوم خفيف. أفاق بعد معاناة، كان ذلك اليوم الأول له في مشوار الثانوية العامة، كان يوماً مشمساً وجميلاً، خرج من البيت وابتاع بعض السجائر، أشعل إحداها وشرع بتدخينها بصحبة القهوة الملازمة لسجائره؛ فقد أصبحت من ضروريات العيش لتفريغ ما يملؤه والده به من غضب وضيق كبيرين.

لم يكن في النفسية المناسبة لتلقي حصصه اليومية، كثيراً ما كان يشكو ويتذمر، كثيراً ما كان يتمنى لو يترك منزله إلى ما لا يدري، إلى المجهول، إلى الشيء الذي يبقيه مختلياً بأورجه يعزف ويتمرن. كانت الدراسة لا تعني له كثيراً؛ حلم الموسيقى هو المسيطر القوي والمتحكم بهذا الشاب الذي بدأت ملامح الرجولة تتضح في وجهه الصغير؛ فقد حلق ذقنه لأول مرّة وكان إحساسه بالنشوة كبيراً؛ فقد أحس بالرجولة وانقضاء وقت الطفولة.

ينظر إلى أمه وهي تعارك أخته محاولةً إطعامها، يشعر بها وهي تقوم بأعمال المنزل التي لا تنتهي ولا تنفذ، يستحضر حرارة الشمس الحارقة في المزرعة وما ينطوي على ذلك من مشقة لأمه التي تكاد أن تتجزأ لتلمَّ بكل ما يحيط بها من واجبات، والده وأخته والمزرعة، ولا ننسى الإحراجات التي يسببها لها دائماً، والتي ولطيبة قلبها،

تبقى بالرغم من ذلك في صفه تؤازره وتشد عزمه. لم يسيطر على دمعه الذي سرعان ما بدأ بالهطول، لم يستطع كبت نحيبه الذي لو ما خرج لأرداه قتيلاً.

يتساءل في قرارة نفسه كم سيكون لئيماً لو لم يحقق شيئاً يرى من خلاله فرحة أمه التي أصبح يفتقدها كثيراً؛ فالأيام سلبت منها كل شيء جميل وألفتها دفينة في منزل تعس، هل سيستمر في مقارعة والده الذي لن يمل مقارعته؟ هل سيستمر في تقصيره الدّراسي؟ سيجن جنون أمه لو أتاها خبرُ رسوبه في الثانوية العامة.

يمسح دموعه ويتناول علبة سجائره، يخرج من الغرفة إلى الخلاء، يحرق سيجارة تلو الأخرى، يستمع لبعض الموسيقى مما خزنه على هاتفه النقال، يتذكر حلمه الذي لم ينجز منه شيئاً بعد.

يتأمل متسائلاً: «هل أستسلم لوالدي وأرضخ له؟ أم أتابع مسيرتي في هذه الحياة الشاقّة كما أريد؟ هل أرمي بكل ما أطمح إليه في سلة المهملات؛ لمجرد أن والدي غير مقتنع ولا يريد أن يقتنع بطموحي؟».

«يا الله! ما هذا الذي يحصل معي؟ والدتي وأختي الصغيرة، طموحي وأحلامي وغطرسة والدي، خليط يشلّ تفكيري كلياً»، يتناول سيجارة أخرى، يشعلها ويتساءل في هذا الكون المترامي الأطراف: «هل هناك من هو أتعس منّي؟ أم أنا ممن اختاره القدر ليقرّر بين الهاوية والنار؟ آه كم أتمنى لو أني كهذا الطير، لا يملك ما يشغل به عقله، يظلّ طائراً في الجو مترفعاً عن كل ما في الأرض من علل وآهات! هل أقتل نفسي لتعذبني دموع أمي التعسة؟ هل أبقى

في هذه المعركة التي لا أدري ما يخبيء لي القدر عند انتهائها؟».

يوم دراسيّ جديد، وتفكيره مستغرق في معادلة هي أصعب ما مرّ في فكره، لا يملك أن يفعل شيئاً أمام وجود أمه التي هي أغلى عليه من نفسه.

بعـد تفكيـر عميـق كان قـراره: «سـأتحمل ضغـط والـدِي، لن أسمح لنفسي بهدر قطرة من دمع أمي، سأتابع تدريبي على أورجي الجميل، سأصبح مهندساً كما يريد أبي، سأفعل كل ما بوسعي لأبقى فـي مضمـار السـلّم الموسـيقي، أعزف وأعزف وأعـزف، لن تجرّني عاصفة الواقع إلى الهلاك!».

-4-

- متى ستظهر النتائج؟
- يقولون بعد ساعة.
- قالوا منذ ساعتين أنها ستظهر بعد نصف ساعة!
- وأنت قلت، هم قالوا، الأفضل أن ننتظر وحسب!

نفذت عشر سجائر من علبته خلال ساعتين. إن لم يكن قد أحرز النجاح بمعدل ممتاز، سيخسر مجابهته لسنة كاملة قضاها بين الكتب، ستتبخر لياليه التي سهرها بين القهوة والسجائر متحدياً النعاس؛ لينهي مراجعة كتبه التي اهترأت حوافُها من التعرّق.

يدخل الأستاذ «أبو أحمد» مدير المدرسة حاملاً معه مغلفاً يحوي نتائج الطلبة، يستعد لإلقاء نتيجة كل طالب في السماعة، يبدأ بالفرع العلمي، يذكر الكثير من الطلبة، منهم من قفز من البهجة، ومنهم من مضى يجر أذيال الفشل والخيبة، ينتظر وما تزال علبة سجائره ماضية بالإنتهاء، لقد نفذ صبر الشاب، يريد أن يعرف نتيجته، هذا حصاد عام كامل ولا يمكن المحافظة على برودة الأعصاب مع التوتر الممزوج بأشعة الشمس الحارقة.

فجأة ومن دون سابق إنذار، يطرق سمعه صوت المدير هاتفاً: فضل مصطفى عبدالله، ناجح بمعدل اثنان وتسعون بالمائة.

تغرورق عيناه بالدموع، يلقي بسيجارته التي أغرق عرَقُه لفافَتها على الأرض، يحمدُ الله على هذا النجاح الذي لم يُرجع سـببه إلا لشفقة من الله على أمه، تلك التي كانت أكبر فرحتها أن رأت نجلها يتسـلم شـهادة التكريم، حيث لـم تقدر إلا أن تطلق العنان لدموعها التي احتبستها كثيراً، لتنهمر في هذا اليوم الذي قدِّر أن يكون أيضاً يوم تاريخ ميلاد ابنتها بتول.

انتهى الحفل، ذهب من فوره إلى طولكرم، وابتاع تبغاً وكعكاً، جال في شوارع المدينة مشاهداً الكثير والكثير من الناس، ينظر إلى ذلك العاجز وهذا المتسـول وذاك المجنون، أحس بأن الله لا يزال معه، وأن رحمة الله أوسع من كل شيء.

تجتمـع العائلـة ملتفـة حـول كعكـة عيـد الميـلاد، يقف فضل ويقبّـل رأس أمـه التـي لـولا توفيق الله وهي، ما أحرز هذا النجاح. يقبّل وجنتي أخته بتول، التي تنظر إليه مبتسمة بطربوشها المزركش وشعرها الأشقر المسدول، يشعر بفرحة غامرة اعتصرت ما لطخ به الواقعُ قلبَه من حزن وبؤس كبيرين.

وقف وابتسم بوجه والده الذي احتضنه بلهفة المشتاق، بعد كل هـذا الضيـاع الـذي لاح بهما، قبّل رأسـه ووجنتيه، نـزل أرضاً وقبّل أيادي والديه، فبللت شعرَه البنيَّ دموعُهما، فنزلت عليه كقطرات مطر ظلّت حبيسة السماء، فأشبعت أرض الجفاف التي طال انتظارها لحبة ماء تضمد شقوقها التي عاث الحرّ بها خراباً.

بعـد هـذا التغييـر في وضع العائلة، وانقضاء عصر الظلام الذي حاكت مجرياته نتائجاً هي من أروع ما شـعر به الشـاب -الذي لم

يعتقد يوماً بحلول عصر ذهبي كهذا على عائلته التي كان سيقضي عليها العفن، لو لم يفكر جلياً بأمه ومستقبل أخته الصغيرة ذات العينين الزرقاوين- لاح بفكره حلمه الذي بدا له كالنسر في أعالي السماء، مترفعاً عن كل ما قد يهزّ ثبات جناحيه واستقراره، فكّر في ما إذا كان حلمه سيرى النور بعد انقضاء عصر الظلام ذاك، أم أنه سيبقى دفيناً أبدياً في قلبه، بيد أن هذا العصر الذهبي الجميل، ما لبث أن اضمحل فور انطفاء شموع كعكة عيد الميلاد.

يخرج حاملاً عوده الذي بدا أصغر مما كان عليه، مصطحباً غليونه وتبغه قاصداً بيت صاحبه أحمد، مشَيا في طريقهما قاصدين منطقة «أبو حشيش»، أخرج أحمد ما في جعبته من إبريق شاي وكأسين وعودين من زعتر البلاط، الذي بالتأكيد سيضفي على الشاي نكهة تجعل رائحته وطعمه أكثر بهاءً وغبطة.

- ماذا حدث في الجامعة والتسجيل؟
- غداً سأذهب لأسجل في كلية الهندسة؟
- وماذا ستتخصص في المستقبل إن شاء الله؟
- بالله عليك أن تدعنا من هذا الموضوع؛ فأنا غير مقتنع بموضوع الهندسة بحدّ عينه، ولا أعتقد بأني سأستمر فيه، ولكن هذه رغبة الوالد سامحه الله.
- أما لان رأسه بعد نجاحك بمعدل ممتاز؟
- لم يلن ولن يلين! (أجاب بنبرة المستهتر).
- وماذا ستفعل؟
- خلّيها على الله، كل شيء في وقته المناسب، أستحلفك بالله

أن تدعنا من هذا الموضوع؛ فنحن جئنا هنا لنسترخي قليلاً، لا لنغم بالنا.

احتسيا كأسين من الشاي مع زعتر البلاط، أشعل أحمد سيجارة ومدّ يده معطياً صديقه واحدة، لكن فضل، رفض وانتزع غليونه ووضع من التبغ به ما يلزم وأشعله، لقد أحسّ بالنشوة؛ فقد غاب عنه ذلك الشعور بتدخينه لفترة طويلة؛ فالإمتحانات النهائية انتزعت منه لحظات سحرية مع الغليون، وأبقته أسير السجائر التي كان يسترق تدخينها خفية خلف المنزل، وعلى الرغم من تدخينه له بعد انقضاء فترة الإمتحانات، إلا أنه لم يشبع منه بعد، فقد افتقده كثيراً، تماماً كما يفتقد أستاذه دائماً.

يتناول أحمد جيتاره معطياً بعد ذلك العود لفضل، استغرقا دقيقتين في موازنة صوت العود الذي تُرك جانباً لأشهر لم يمسسه صاحبه؛ فقد كانت مفاتيح الأورج وصوت البيانو في أذنيه، هما الترياق الوحيد لذهن ذلك الشاب المعكر بامتحانات الثانوية العامة؛ فلم يكن هناك من يواسيه غيره. عزفا أغانٍ غربية وشرقية، مضى الوقت سريعاً ولم يشعرا بالملل؛ حيث أن سحر الموسيقى أنساهما نفسيهما إلى أن آن أذان العشاء.

الفصل الثالث

-1-

غـداً هـو أول يـوم فـي الجامعـة، كـم تمنـى لـو كان فـي كلية الفنـون الجميلـة، لكن هذه رغبـة والده، ولو رفض الإنصياع لأمره، لما كان سـيحظى بفرصة الدراسـة الجامعية أصلاً؛ «فالواقع غالباً ما يفـرض علينـا أشـياء لا نرغب فيهـا، ويرغمنا على ما لا نحب، هذه هـي الدنيـا ولا نملـك إلا الصبـر!»، لـم يجد غير هذا يشـد به أزره، أخذ سـيجارة وخرج، أشـعلها ولم يجرع منها إلا القليل، رمى بها في الشارع ومسح شعره بيديه وتنهد، دخل إلى أورجه وعزف بعض الموسيقى، استراح قليلاً، لكن تفكيره في المستقبل أثقل كاهله، ما دفعه للخروج واحتساء فنجان قهوة مع أحمد بصحبة الغليون الذي كلّمـا دخّـن منـه، أحس بقيمته وإخلاصه؛ فهو الشـيء الوحيد الذي يحترق من أجله، ليخفف عنه همّه الذي لن يخف.

اليـوم الأحـد، والجامعـة سـتبدأ فصلها الدراسـي الأول، وكل طالب سيكون فيها على أهبة الإستعداد، إن لـم يكن من النية لطلب العلم، فبالتأكيد شـكله وهيئته ولون حذائه وفتحة القميص وشـعره المتلبـد بمسـتحضرات التثبيـت، ولا ننسـى دلق نصـف علبة العطر؛ ليكتمـل بذلـك مظهـره الحضاري كطالب علمٍ يأتـي لعرض الأزياء بآخر صرعاتها.

دعك من هذا، لنبقَ مع صديقنا فضل!

لكـن فضـل، لـم يفكـر في ما سـيكون عليه حالـه في هذا اليوم، فقد اكتفى بوضع غليونه وعلبة الثقاب في بنطاله، ودجّج هاتفه المحمول بكمّ من الموسـيقى الكلاسـيكية؛ علّها تواسـي وحدته في سـاعات فراغه بين المحاضرات، تلك التي سـتكون هماً سيلازمه خمس سنين بعد أن يغلق باب غرفته متوجهاً إلى الجامعة الآن.

لقـد بـدا ذلـك اليـوم كئيباً جداً، وبدا الناس في حالة يرثى لها، لـم تلمـح عينـاه أي منظر يدل على التفاؤل والصفاء، بدا كل شـيء معكراً، تماماً كنفسـه التي لم تهدأ ولم تقر بعد أن طلب من والده فور إطفاء شـموع عيد الميلاد، أن يسـجل في كلية الفنون الجميلة بدل كلية الهندسة؛ ظناً منه أن والده سيكون في مزاج يسمح بالنقاش وإبداء الآراء، فلم يدُر بباله أن عقل والده يحاكي في الصلابة حجر الصوان، وفي الثبات أهرامات مصر.

طلب كأساً من القهوة وذهب إلى الخارج، بحث كثيراً وكثيراً عن مكان يخفي به غليونه الذي سـيصبح نكتة الموسـم لو رآه أحد يدخنه، غليونه الذي بالتأكيد سـيكون وأنغام الموسـيقى الكلاسيكية، خير جليس ونعم مواسٍ له في هذا المجتمع الصغير.

أخيراً وبعد طول نأي وبحث أفضى إلى المقعد المناسب، مقعد يقابل مدخل كلية الفنون الجميلة؛ علّه بذلك أيضاً، يخفف عن نفسه بتخيّل ما يحتويه هذا المبنى من آلات، وما تعزفه تلك الآلات من

أنغام وموسيقى.

«آلات وأغانٍ، ألحان شرقية وغربية، كم أنتم محظوظون يا طلاب هذه الكلية!»، قالها وهو يمسح الغبار عن المقعد وأردف: «لا مادة رياضيات ولا معادلة كيمياء، ولا احسب مقدار العزم إذا اقترب ذلك الفيل من نقطة الإرتكاز في هذه الأرجوحة أو تلك، ولا قوة تحمّل هذا السقف إذا تربّع فوقه جحشان مع صاحبهما الذي ملأ بطنه قبل أن يفطر»، بدأ صوته يرتفع وتابع: «لعن الله الفيزياء، كم أكره هذه المادة، كم أكره الهندسة، كم أكره هذه الكلية، يا الله! لماذا كتبت علي هذا القدر الكئيب؟».

لا يملك أن يفعل شيئاً أمام حكم والده وغطرسته، لا يملك أن يتخيل أمه تعاني المزيد بسببه، لا يمكن أن يتسرع في أي قرار؛ لأنه يعلم كم ستعاني أمه وأخته بسبب هذا، وكم سيكون فاجعاً غيابُه عن العائلة، إذن، الرضوخ لقرار والده يبقى هو الخيار الأوحد!

مضت السنة الأولى وانتهت، لم يقم أي علاقة مع أي طالب أو طالبة، لم يكن له أي أصدقاء غير ذلك المقعد الذي أصبح مرفأه وبيت عزائه الوحيد من الوحدة والهموم.

- مبارك تخرجك يا صاحبي!
- بارك الله فيك، وإن شاء الله يكون تخرجك عما قريب.
- أي قريب هذا؟ فقبل أن أفكر في التخرج، عليّ أن أفكر في التخصص؛ فقد أصبح لزاماً عليّ الآن، أن أقرر ما هو مجال تخصصي.

- لماذا لا تتخصص مثلي؟
- مثلك؟! مهندس صوت؟! يا لها من فكرة عظيمة، سأطرحها اليوم على والدي، وأتمنى أن لا يصدني ككل مرة.

لقد كان هذا النهار أفضل من سابقيه؛ فقد شهد فضل حفل تخرجِ صديقه المقرّب، والفكرة التي أسدى بها إليه صاحبه، كانت بمثابة شمعة أضاءت ذلك الدرب الذي لا يبصر منه شيئاً إلا الظلمة.

- السلام عليكم يا والدي!
- أهلاً وسهلاً بالمهندس الكبير.
- ما أخبار العمل والمزرعة؟ هل كل شيء على ما يرام؟
- لا نقول إلا الحمد لله أولاً وآخراً، ولكن ما سبب هذه الزيارة المفاجئة؟ فهذه المرة الأولى التي تزورني في المزرعة بعد دخولك الجامعة!
- هناك شيء أريد أن أستشيرك فيه!
- سترك يا رب! (يقولها متأففاً).
- هناك رغبة جامحة عندي بأن أتخصص في هندسة الصوت.
- ماذا؟ هندسة ماذا؟ هل جئت هنا لتقهرني؟ أي كلام فارغ هذا الذي تقول؟ أنا أريدك أن تصبح مهندساً أعتز به بين الناس، وليس مسجل صوت!
- يا والدي! هندسة الصوت ليست بالشيء الهين ولا العيب ولا الحرام، وأنا أرى في هذا التخصص شيئاً جميلاً وممتعاً ومناسباً لي.
- ترى أو لا ترى، هذا ما لدي!

يخـرج فضـل مـن مزرعتهـم كالطريد، ينظر إلـى كل من حوله باحتقار، لا يفكر بشـيء إلا الموسـيقى، أصبح الدين والصلاة نسـياً منسـيا، أصبحـت نظرتـه للديـن تماماً كنظرته لوالـده، لن يقترب من هذا الشـيء بعد الآن، لن يفكر في أي شـيء يشـغل باله إلا حلمه الذي يزداد وقودُه اشتعالاً كلما لاح بفكره الأستاذ بعزفه الساحر.

-2-

سـقط الغليون أرضاً، شُـلّت حركته ولم يفهم ما يحصل، ظلّ ساكناً لا يقوى على فعل شيء إلا التفكير في ما حدث، فرك عينيه وقرص قدمه، «هل أنا في علم أم في حلم؟» سأل نفسه، لم يشغل نفسه بالبحث عن جواب، ظلّ حاله مبهماً حتى شمّ رائحة بلاستيك يحترق، لم يكترث كثيراً، همّ بالقيام وتناول حقيبته بلطف فلسـعت يـده، نظـر إليهـا فإذا بها قد خُزمـت من الجانب، «الحقيبة وصاحبها تحترق، ليس هذا من شـأني، المهم أن أعرف أي شـيء عنها، من هي ومن تكون؟ من أين تاتي ومن أين تروح؟ في أي كلية تدرس؟ وهل حقيقة هي أم وهم؟»، قالها بصوت مسموع.

بين جمع غفير من الطلاب ذاب طيفُها، حشدٌ كبير من الطلبة لم يمنعه حرصُه من التشاجر أن يقتحم صفوهم ويعكره بسؤال هذا وذاك، والنظـر فـي هـذه وتلـك، لقد ذابت كالملح، عـاد إلى مقعده والتقط غليونه الذي أنساه سحرُها أن يدرك سقوطه.

- ماذا أقول وماذا أقول؟ ماذا وماذا وماذا أقول؟ لا أملك شيئاً لكي اقول، عينان لوزيتان، ووجه دائري يشع نوراً وكأنه وجه ملاك من السماء، شعر أسود مسدول، كأن الليالي قد سكنت به ودفنت فيه، أنف صغير مدبب جميل، فم كحبة الفستق، أسنان كأسنان المشط، طول فارع بمشية ملكية. (كان يقولها بشيء من الهذيان).

- لا لا لا، اهدأ يا صاحبي وتمالك نفسك! لا يصل بك الأمر إلى هذا الجنون، سيغمى عليك! (قالها مداعباً فضل).
- لا يا أحمد، إن كان سيغمى عليّ بسببها، فأتمنى أن لا أفيق أبداً.
- صديقي! ماذا تفعل؟ أنت لا تنظر إلى نفسك، أنت تتصرف كالأطفال!
- كالأطفال كالأطفال، هذا ليس من شأنك، أعطني سيجارة واصمت! أو ما رأيك أن تسمعني بعضاً من أشعار نزار قباني؛ فهو متخصص في الحب، وأنت من عشاق أشعاره، وأظنني سأصبح واحداً منهم.
- على الرحب والسعة، اسمع:

إني عشقتكِ واتّخذتُ قراري	فلمن أقدم يا ترى أعذاري؟!
لا سلطةً في الحب تعلو سلطتي	فالرأي رأيي والخيارُ خياري
هذي أحاسيسي فلا تتدخَّلي	أرجوكِ، بين البحر والبحّار
ظَلّي على أرض الحياد فإنني	سأزيدُ إصراراً على إصرارِ

شعر بنشوة الشعر ولذّته، وفي تلك الليلة، لم يتوانَ عن قراءة الكثير منه؛ علّه يشبع رغبته الجامحة في مَلء الفراغ الذي سببه والده في قلبه الكسير، قرأه بكل حب وامتنان خالصين، لم تتوارد إلى ذهنه فكرة أنه ربما قد أحبها وأحب الدنيا من جديد لأجلها، ولأجلها، ربما سيسعى مجدَّداً لغزل خيوط حلمه الذي مزقته مخالب الأيام، وأبقته بقلبه ألماً، لكنه يعتصر أملاً.

قضـاء سـنتين كاملتيـن في الجامعة وحيداً مشـرداً غير آبه بكل ما تحتويه، سوى ذلك المقعد الخشبي العتيق، جديرٌ بأن يجعل منه شخصاً مستهتراً لا يلتفت لشيء سواء يعنيه أو لا يعنيه، سوى تدخين غليون وسماع موسيقى.

لقد أعادت له حس الدعابة الذي فقده قديماً وتلاشى مع الزمن، أيقظـت فيـه روح المثابـرة والتحدي، أطفـأت فيه نار الغضب وثورة الإنتقام، أحس بروحه تسـمو وتسـمو في فضاء الكون مجدداً، لكن ما لم يدركه سـريعاً: «أصحيح أن صدفة جميلة كهذه انتشـلتني من عزلة الحياة؟ أصحيح أنني أصبحت أكثر قوة من أي وقت مضى؟» تساءل في نفسه.

كثيـرون هـم من صـاروا أصدقاءه، أصبحت دنياه ملآى بالناس وعلاقاته تشـعّبت، لكن متى سـيكون لقاؤهما التالي؟ لم يكن على علم بأي شـيء، لم يدرِ لماذا لم تكن هناك أيّة بادرة توحي بصدفة أخرى، لكنه ظلّ متمسكاً بإيمانه بأنها لا بد أن تعود، فلا يمكن أن تتركـه معلقـاً بيـن السـماء والأرض، لا يعرف بينهمـا مرفأ يأويه ولا حضناً يدثّره.

صديقـه الجديـد أيمـن، يسـير بعكازتين، طالبٌ في قسـم اللغة العربية، أحب الشـعر وعشـق نزار قباني، وجد فيه فضل، خير رفيق يمـلأ جـو جلسـاتهما بأعـذب مـا عشـق من سـحر الكلمـة وصدق الإحساس، كان نزار قباني هو حديث أغلب الجلسات، أحب اللغة العربية، عشـق الشـعر ودرسـه، بدأت سوسـته تنخر قلبه، تساءل في

نفسه عن تأثيرها عليه لمجرد صدفة بالتأكيد كانت لحظة عابرة للكثيرين، لكنها بالنسبة إليه، كانت قلبة جوهرية في نظرته للحياة وللفتيات على حد سواء.

لم يتخيل نفسه يوماً عاشقاً لإحداهن، يسهر الليالي يفكر في ما تفعل وفي ما لا تفعل، ماذا تأكل وماذا تشرب، متى تنام وماذا تفعل بالحمام. تخيّل نفسه دائماً جبلاً راسخاً لن تقوى ريحُ إحداهن على هزّه أو التأثير عليه ولو لبرهة من الزمن، لم يكن شيئاً وأصبح كل شيء.

انقضت أيام وأشهر لم يظهر طيفُها فيها إلا في حلمه وخياله، لقد سيطرت على كل خلية فيه، لم تترك نار الشوق لها شيئاً له من أحلامه وأمانيه، لقد ألفتها دخاناً، كل يوم يحتسي قهوته على المقعد لا يفكّر إلا فيها.

«لكن ما الذي يجعلها لا تأتي ثانية؟ أهي ليست من طالبات هذه الجامعة، وقد اختارها القدر لتنسج لي بساط عذاب أحمر، أسير عليه بخطى متأرجحة ثقيلة لأسقط في نار حبها بلا مقابل؟ يا إلهي! ما هذا الذي يحدث؟ هل كتبتَ عليّ الشقاوة الأبدية؟ أم أنا ممن لا يستحقون الرحمة؟ أو ممن خُلقوا وكأس حياتهم علقم؟!» يفكر في قرارة نفسه ناظراً إلى السماء.

لم يجد شيئاً أكثر حلاوة من أن يخط بكلماته حاله ومحياه الأبديين، في قصيدته التي لم يجد خيراً من «ملل» عنواناً مناسباً لها، قال:

سئمتُ الحياة سئمت الضجر ودمعي نزولاً يُحاكي المطر
سئمت من اللّحن والأغنيات وعزف جميل لضوء القمر
تراني وحيداً بليلي الطويل أُساق أسيراً لوقت السحر
إذا طرت يوماً لحلم يصير كطير جميلٍ هوى وانكسر
سئمت التمرّد والإنتظار لحلم يموتُ بسخر القدر
وما لي وما للجديد انتماءٌ أعيش كمن عاش عصر الحجر
أتوق لفرح يداوي الجروح وعيش كريمٍ ككل البشر
أقاسي الحياة بحول قليل وعمر تناسى الأسى وانتظر
ويوم التقيت بحظي السعيد شربت احتفالاً بهذا الخبر
تخيّلتُ أني لشعب أمير وحكمي سريعاً هناك انتشر
فلما دنا من منامي استمات ولما دنا منه حلمي انتحر

لم تمنع حالة أيمن كعاجز عن السير، أن يثب من مرقده ليطبع قبلة على جبين صاحبه الذي لم يصدق أنْ أصبح لديه صديق بهذه الشاعرية التي تمنى كثيراً لو امتلكها، ضحك فضل ضحكة، حالتْ حالتُه دون إخفاء لونها الأصفر الباهت.

-3-

انتهى الفصل الأول، وجاءت العطلة، وجاء يوم الخميس، لبس أفضل ما عنده واتصل بأحمد، كان اليوم جميلاً، لكنه ليس أجمل من ذلك اليوم.

طرق الباب ودخلا، لم يكن في الأمر ما هو أجمل من إلقاء نظرة على البيانو الذي افتقده كثيراً، تحسسه وداعب مفاتيحه الخشبية، جلس على الكرسي وبدأ يعزف ضوء القمر، لم يصدق الأستاذ محسن ما تسمعه أذناه.

- أهذا هو الطفل الذي تركته قبل أربع سنوات لا يملك القدرة على عزف أبسط الألحان بطريقة تلفت النظر؟ ما هذا التحول والتطور الكبيران؟ هل ذهبت إلى ساحر وسحر أناملك الرفيعة يا فتى؟ (قالها الأستاذ بشيء من البهجة والغرابة).

ابتسم فضل ولم يردف بشيء، فقد كان رأي الأستاذ محسن كافياً ليقطع عليه النفس ولا يتقول بأي حرف، تذكّر فتاته الحلوة وتمنى لو كان يعرف شيئاً عنها؛ فعلى الأقل، هذا سيجعل ابتسامته تتسع أكثر وأكثر.

تحدث الصديقان عن حالهما بشكل بسيط ثم قال أحمد:

- حدثنا عن رحلتك إلى لندن ولماذا ذهبت إلى هناك!

أشعل غليونه وقال:

«أولاً، وكما تعلمون، كنت أعمل في رام الله كأستاذ لتعليم آلة البيانو في إحدى المؤسسات، وأحياناً وبسبب علاقاتي والأصدقاء، تأتيني بعض الطلبات لتأليف موسيقى للمسارح؛ فالموسيقى كما تعلمون، جزء أساسيّ من المسرح، ولا يمكن الإستغناء عنه أبداً.

قبل عدة سنوات، أنجزت مشروعاً موسيقياً لأحد المسارح الكبيرة في رام الله، وكان هذا سبباً لتعرّفي على أحد الرجال الإنجليز يدعى «جورجي»، حضرنا سوية المسرحية، أخبرته بأني من قام بتأليف الموسيقى، أثنى عليها بفتور، وكان النفاق يتسلل من بين ثنايا وجهه الأحمر، تحدثنا قليلاً وكثيراً، أخبرته بأن أمي إنجليزية، فتفاجأ كثيراً، ثم فجأة أبدى إعجابه الشديد واللامتناهي بالموسيقى، وطلب مني رقم الهاتف والمحمول والبريد الإلكتروني.

بعد أسبوع اتصل بي وطلب مني إنجاز قطعة موسيقية لمسرح في لندن، لم أصدق الأمر في البدء، وقلت له لا بد أنك تمزح! فأكد على جوابه وجديته في الأمر، وهذا ما دعاني لإنهاء المعزوفة في أسرع وقت باذلاً كل جهدي لأقدم شيئاً مميزاً وجميلاً.

ألّفتها وأرسلتها، فتوالت عليّ طلبات تأليف الموسيقى لعدة مسارح في بريطانيا. قرابة العامين بقيت أؤلف وأكتب النوتة وأرسلها إلى أصحابها، أرسلت كثيراً من الموسيقى.

في أحد الأيام، فتحت علبة البريد الإلكتروني، فوجدت رسالة تؤكد حصولي على عمل في بريطانيا، كمؤلف موسيقي وعازف لدى

مسرح من أفخم المسارح في لندن، من فوري استقلت من وظيفتي في رام الله وسافرت إلى هناك، أقمت في شقة تقابل برج الساعة، كل يوم كان أجمل من الآخر، كل شيء كان ممتازاً، الأكل والشرب والتنقل والنقود، أقمت عروضي الخاصة وألّفت الكثير من القطع الموسيقية التي حظيت بقدر كبير من الإحترام.

بعد مضي أربع سنوات في هذا العمل، جاء رجل إلى شقتي يحمل مغلفاً فيه ورقة، قرأت فيها أن موسيقاي ستقدم عرضاً في إحدى دور العرض بأمريكا ولا شيء آخر، بعد يوم واحد جاء جورجي لزيارتي في الشقة وأخبرني بأنه قد تم اختيار موسيقاي لتقدم ذلك العرض بلوس أنجلوس.

فرِحت كثيراً ووعدته بأني سأفعل ما بوسعي لأشرّفهم، ضحك وقال: نحن نثق بربجالنا الإنجليز! لم أفهم جيداً ما قصده «برجالنا الإنجليز»، تناسيت الأمر وشرعت من فوري أجهز الأوراق اللازمة للسفر، ليأخذها جورجي معه ويخلّصها في أسرع وقت ممكن؛ فالوقت ضيق، أعطيته ما يلزم وذهب.

بعد يومين ذهبت لأفتح الباب، فإذا بالرجل صاحب المغلف يعطيني آخر يحتوي على أوراقي وورقة أخرى، قرأت الأخرى وصعقت بالأمر لحد الصراخ، كُتب فيها: «تلك هي أوراقك، أمامك يومان لتغادر البلاد وتذهب إلى حيث أتيت!».

اتصلت من فوري بجورجي فلم يجب، أخذت سيارة وهرعت إلى منزله، فتحت لي الخادمة الباب، وبعد عشر دقائق أتى عابساً ودون أي تحية أردف:

- ماذا تريد؟
- لست الذي يريد بل أنتم!
- ليس للكذب مكان بيننا.
- وما دخل الكذب في موضوعنا؟
- لا أنت ولا أحد من عائلتك إنجليزي، فلماذا كذبت علي؟ (ناظراً إلي بحقد وتابع): أنتم العرب دائماً هكذا، لا تعرفون للصدق مكانْ.

تناسيت كل شيء ولم أفكر إلا في شيء واحد.

- وموسيقاي؟
- أنت وموسيقاك لا شيء!

خرجت فوراً، وتساءلت في نفسي عن الشيء الذي جعل هذا الإنجليزي اللعين يعجب بموسيقاي ويحترمها بعد نأي ثلاثين عاماً، ثم بعد ما كل هذا، يأتي ويرفض كل ما حدث.

وصلت إلى الشقة لأرتب حقائبي فوجدت إقالتي من العمل قد سبقتني إلى الباب، ذهبت من فوري إلى المطار وحجزت في أول طائرة إلى الأردن، هذا كل ما حدث يا أولاد.»

بدا الشابان في حالة من الذهول ملقيين سمعهما إلى كل حرف يقوله الأستاذ، أعجب فضل كثيراً بصراحة أستاذه وجرأته، ولكنه لم يقتنع بشيء واحد.

- لكن ما الذي جعلك تكذب عليه في تلك الجلسة التعارفية؟
- أنت يا فضل تعرفني كثيراً، وتعرف أني أمزح أكثر مما أتكلم، وهذا طبع وضعه الله بي، أحاول من خلاله كسب المزيد من

الأصدقاء والأحباب؛ فأنا إنسان لا أحب التكلف وأسعى لكسب كل الناس أصدقاء.

أعجب الشابان كثيراً بجرأة الأستاذ في الحديث بكل هذا الوضوح وتلك البساطة، وصراحته في قول كل شيء لإيمانه بأنه لم يكذب لأنه يريد أن يكذب، وأن ما حدث، لم يكن خطأ، بل كان شيئاً عادياً بل وجميلاً جداً، وأكد هذا قولُ الأستاذ محسن، أنه لم يوضح أنه كان يمزح؛ لرؤيته لذاك التحوّل في ردة فعل الإنجليزي تجاه موسيقاه.

- أخبرني يا فضل! كيف هي جامعتك؟
- الحمد لله، يوم الأحد القادم، سيبدأ دوامنا إن شاء الله.
- بالتوفيق يا رب، لكن قل لي! كيف عرفت بأنني قد عدت؟
- أنت لا تعرف يا أستاذ، فقد أصبح لدي العديد من الأصدقاء في هذا الحي، وجاركم «كريم» هو الذي أخبرني بأنك قد عدت.

نفث من غليونه وقال بضحكة تخللها الكثير من القهقهة:

- سامحه الله، فما كنت أنوي إخبارك بعودتي هاهاهاها.

تحدثوا قليلاً ثم غادرا. كانت هذه زيارة مجاملة لليوم لا أكثر؛ فالفتاة صاحبة الرداء الأزرق، لم يفارق طيفُها خياله.

بعد ذلك بأسبوع، كان يوم الخميس من الأسبوع الأول لبداية الفصل الثاني من السنة الثالثة، كان كعادته جالساً بصحبة غليونه والقهوة، وإذا بصوت رقيق عذب يتسلل إلى أذنيه. نظر ليبصر القادم وإذا هو ليس بقادم، كان فتاة تجلس بصحبة آلتها الكمان، لم يشغله عزفها على الرغم من جماله الأخآذ، لكن ما أوقف قلبه مرة ثانية

وجعل حالته الأولى تجيئه ركضاً، هو رؤيته للفتاة التي كانت تجلس بجانبهـا، فقـد كانـت هي، نعـم هي، تقف بكل حضورها وسـحرها تشدو بأعذب صوت مرّ في سمعه، لم يتردد في أخذ جرعة أخرى من غليونه أحسّ بحلاوتها وطعمها الجميل، أخذ رشـفة أخرى من القهوة، نظرَ إليها وكأن الزمان قد توقف عندها.

تخيل نفسه ملكاً لهذه الدنيا وما فيها، لم يعتقد بأن هناك شيئاً يضاهي فرحته الغامرة بلقائها ثانية، أطلق سراح جرأته وذهب، ظلّ خجلـه نائمـاً ولـم ينبس ببنت شـفة؛ فـلا مكان للخجل بعـد اليوم، اقترب وألقى عليهن التحية.

- مرحباً صباح الخير.
- صباح النور.
- هل لي بسؤال؟
- تفضل!
- أنـا أعـزف علـى البيانـو، وطالما أردت التعرف عن كثب على الآلات الموسيقية داخل كلية الفنون، فكيف لي بذلك؟
- لم لا تدخل وتتعرف عليها كما تشاء؟! (قالت عازفة الكمان).
- لقـد حاولـت مـرات عدة، ولكن من دون جدوى؛ فكل غرف الآلات الموسـيقية مغلقة وتشـغل في أغلب الأحيان محاضرات، عـدا عـن ذلـك، ليـس مسـموحاً لغير طلبـة الكليـة بالعزف على آلاتها.
- نعم صحيح، لكن أنا أعزف على الجيتار، وأستطيع مساعدتك في هذا الشأن. (قالت الأخرى).

- كيف؟
- يوم الأحد القادم، عندنا تدريب على معزوفة «ضوء القمر»، سأتحدث إلى أستاذتنا بشأنك، وأعتقد أنها لن تمانع في حضورك هناك.
- ولكن في أية ساعة آتي؟
- تعال عند الساعة العاشرة والنصف، إلى مكتب الدكتورة «أنغام شلف».
- شكراً جزيلاً.
- عفواً.

ظل جالساً يتخيل ما حدث في هذا اليوم المعجزة، جلس يكتب شعراً، عزف كثيراً على أورجه. مضى يوم الخميس فالجمعة، ذهب السبت وغداً سوف يأتي الأحد.

لقد طال انتظاره ليوم الغد، ويبدو أن الساعة توقفت عقاربُها عن العدّ، لم يجد خيراً من الذهاب لبيت صديقه أحمد، أشعل غليونه وقصّ عليه ما حدث قبل بضعة أيام، أبدى صديقه إعجابه الشديد بهذا الموقف، ولم يتردد في قذف الشتائم على صديقتها عازفة الكمان؛ لما أبدته من جلافة في التعامل والردّ، لكن فضل، وعلى الرغم من حساسيته اللامتناهية، إلا أنه لم يشغل فكره ولو للحظة فيها؛ فقد اكتفى بالتفكير في أبيات شعره التي أكمل بهن ما كتبه عن ملله واكتآبه الشديدين، فقد رآها ثانية، وما حدث بينهما كان انعطافاً رائعاً وجميلاً، قرّر تغيير العنوان، سأل أحمد إن كان في باله عنوان آخر لهذه القصيدة.

• ألا تريد أن تسمعني ما جدّ لأقرر؟!

• طبعاً طبعاً.

رشف رشفة أخرى من القهوة وقال:

ولكنّ يوماً بصدق رأيت ... فتاة تغني لشكوى الوتر

بوجه بريء لجسم قويم ... وشعرٍ بطول ليالي السهر

أطاحت بحزني أصابت فؤادي ... ودمعي استقال بلمح البصر

أذابت جمودي بسحر الكلام ... وقلبي انسلى عنه معنى الخطر

وليس لسحر العيون مثيل ... ولا قطّ يوماً ببالٍ خطر

فقلت بعقليَ هذا هراءٌ ... ولكنّ قلبي هواهُ انتصر

• يا سلام يا سلام! ما هذا الإنقلاب الرائع؟

• هل أعجبك؟

• بالطبع، كلامٌ أكثر من رائع!

• وهل في بالك عنوان جديد؟

• بصراحة لا!

• حسناً، أنا فكرت في عنوان هو «مُنعطف»، هل تجده مناسباً؟

• إنه جميل جداً، وأنت قلت أن ما حدث كان انعطافاً جميلاً؛ لذا اعتمده وتوكّل على الله.

• إن شاء الله.

-4-

أفـاق مـن نومـه مبكـراً على غيـر عادته، ذهب إلـى خلف بيته ودخّن سـيجارة مع فنجان قهوة، عاد وعزف على عوده أنغام أغنية «لقاء الأحبة» للموسيقار الرائع فريد الاطرش، والتي كان قد حفظها من والده عن ظهر قلب، أخذ حماماً سـاخناً، لبس أجمل ما عنده، بعد أن تأكد من أن كل خيط في قميصه قد داسـته خطى المكواة، وقف قبالة مرآته الصغيرة ومشـط شـعره البني الطويل، مع قليل من المرطب ليضمن لمعاناً يدوم حتى انتهاء اللقاء المنتظر على الأقل، بقي المعطر، لم يجد سوى وضع نقط قليلة من علبة العطر الصغيرة التي أحضرها والده من أحد الحجّاج.

اليـوم رائـع، والسـماء صافيـة، والطيور تغـرّد والناس في أبهج صورهـم. وصـل إلـى الجامعة متوجهاً من فوره لشـراء قهوة حلوة، ألفى إلى صديقه الخشبي وسحب عود ثقاب وأشعل غليونه.

علـى أنغـام ضـوء القمـر، انتظر، مـرّ الوقت سـريعاً، دخل إلى مبنى الكلية، سـأل عن مكتب الدكتورة أنغام شـلف فوجده سـريعاً، انتظر لخمس دقائق، حلّق بها خيالُه في فضاءات الحب والموسيقى وأشعار نزار قباني، وإذا بصوتٍ رقيقٍ عذبٍ يحييه:

• صباح الخير! (قالت).

• صباح الورد والفلّ والموسيقى.

لم يكترث لما قاله؛ المهم أن يفرّغ ولو شيئاً بسيطاً مما يختلج صدره، ابتسمت لقوله واحمر وجهُها، نظرَ إليها بنظرة المذهول، لم ينتبه إلى نظره كيف كان يحدّق بها.

ليس هذا من شأننا، المهم!

دخلا المكتب وألقى التحية على الدكتورة التي رحبّت به أشد ترحيب وسـألته عن دراسـته، أجاب ولم يخفِ علامات القرف مما يدرسه.

انتهـى وقـت تدريـب الطلبة، وحـان موعد عـرض العضلات، جلـس وبـدأ يعـزف، وفي أثناء ذلك تناولـت جيتارها البنيّ وعزفت معـه، لـم يصـدق ذلـك، أهي حقاً مـن يجلس بجانبـه ويعزف بهذه الحـلاوة؟! تـذوق كل مـا عزفته على الرغم من بعض النشـاز الذي ظهـر جليـاً فـي نغمات آلتها، لم يلتفـت له أبداً، ظلّ محدقاً بوجهها غارقاً في ابتسامتها الساحرة تطفو فوق صفين من اللؤلؤ.

أنهيا ما بين أيديهما، صفقا له بحفاوة، لم تتردد في شكره على منحها فرصة العزف بمرافقته، ابتسمت مرة ثانية، فنزل معدل السكر في دمه وارتفع ضغطه، خرجا وذهب كل منهما إلى مراده، لم يكن لـه مـرادٌ سـوى الجلوس على مقعـده وتدخين المزيد من التبغ، ظلّ غارقاً في ابتسامتها التي لم تفارقه لحظة.

ذهب لتوه إلى بيته، ولم يكن قد ارتاد أية محاضرة، أغلق على نفسـه بـاب غرفتـه وجلـس إلى أورجه، وضع سـماعاته مقرراً عزف ضـوء القمـر، أرخـى أصابعه لتداعـب مفاتيح الأورج، فوجد نفسـه يعـزف نغمـات لـم يسـمع بها من قبل أو بعـد، نغمات هي ما خطر

على بال هذا الشاب الذي لم تفارق ابتسامُتها مخيلتَه، استمرّ في العزف مغلقاً عينيه ينظر إلى ابتسامتها في مخيلته ويعزف المزيد، كان لحنه الشخصي، لم يكن قد مرّ في سمعه مثله، أعاد عزفه عشرات المرات.

الفصل الرابع

-1-

جالساً على مقعده، ينتظر قدومها؛ ليحظى برشفةٍ من ينبوع سِحر ابتسامتها؛ ليضمن يوماً آخر من السعادة والأمان، أتت فتقدم بخطى ثابتة نحوها.

- عفواً، صباح الخير أولاً.
- صباح النور.
- هل لي بسؤال لو سمحتِ؟
- تفضل واسأل كما تشاء!
- أعتذر عن سؤالي إن كان مضايقاً، ولكن في أيّة كلية تدرسين؟
- أنا أدرس في كلية الفنون.
- عندي استفسار بسيط، وأتمنى أن لا تنزعجي! أنا أجلس منذ سنوات أمام مدخل هذه الكلية، ولم أرك إلا مرة واحدة قبل شهور، ثم بدأت بعدها تأتين كل يوم. (بدا وجهه محمراً).
- صحيح، فقد كنت أدرس الإقتصاد في الجامعة الأردنية، ثم انتقلت للدراسة هنا؛ لأنني لم أجد نفسي مرتاحة في دراستي تلك.
- شكراً جزيلاً.
- أهلاً وسهلاً، لكن ما اسم حضرتك وماذا تدرس؟

- أنا فضل، من بلدة عنبتا قضاء طولكرم، وأدرس الهندسة المدنية، واسمكِ؟
- أنا ميّ، من مدينة رام الله.
- تشرفنا.
- سلام.
- سلام.

كانت هذه خير بداية ليوم جامعي ممل؛ فبالتأكيد هذا سيجعل من الوقت عدَماً ومن الدراسة متعة على الرغم من كراهيته لها، جلس على المقعد، وبنظرة حقد وشتيمة لأم أبيه، تذكّر كيف منعه من الدراسة في تلك الكلية التي إحدى طالباتها، الفتاة التي أصبحت ابتسامُتها وقود أيامه وإلهام شعره ونغماته.

عاد إلى منزله مبتهجاً، قبّل يد أمه وحضن أخته الصغيرة، دخل غرفته ليكمل نغمات معزوفته «ابتسامة»، تلك الإبتسامة التي ألْفته أسيراً لا يملّ سجنه أبداً، بل ويعشق سجّانه ويحرص على ملاقاته يومياً.

صار مدمناً على ابتسامتها، وأصبحت بالنسبة له، إلهاً خاصاً لا يعبده سواه. أسبوعان وأصبحت معزوفته قيد الإنتهاء، لم يتبق سوى قليل من اللمسات، لتخرج واحدة من أعذب الألحان التي لن يملّ سماعها ما دام في أذنيه ذرة سمع.

متوجهاً إلى بيت صاحبه أحمد، يطرق الباب فتخرج والدته لتخبره بأنه ما زال في طولكرم، مشغولاً بتسجيل ألبوم لأحد الفنانين الشعبيين، يقفل راجعاً إلى البيت ويبدأ من فوره بمراجعة المعزوفة

التـي انتهـت، ولـم يتبـق شـيء إلا أن يسـجلها بإمكانياتـه الخاصـة والمتواضعة جداً.

انتظـر فـي غرفتـه ولـم يتمكن من الإتصال بـه؛ فقد كان أحمد مغلقـاً هاتفـه النقـال؛ لكـي لا يؤثـر رنينه على دقة التسـجيل. فجأة، أحـسّ برعشـة كبيـرة فـي سـاقه، التفت ليرى ما الأمر، فاكتشـف أن صاحبه يتصل به.

- أين أنت؟
- الآن وصلت إلى البيت.
- أريد أن تعيرني سلكاً أوصل من خلاله الأورج بالكمبيوتر؛ أريد ان أسجّل قليلاً!
- تعال وخذه متى تشاء.
- ها أنا قادم.
- على الرحب والسعة.

-2-

يدخـن الغليون ويتذكر ابتسـامتها، فتأتـي باكية حزينة، يرمي ما بقي من تبغ فيه ويهرع إليها مسرعاً.

• ماذا حدث؟! (قالها وهو لا يستطيع لقط أنفاسه).

• لقـد رُفضـت مـن لائحـة المرشـحين للسـفر مـع جوقـة الجامعة.

• لا تنزعجـي هكـذا! فربمـا لديهم عذرهـم، ولا عليكِ؛ فالأيام قادمة، ويمكنكِ السفر معهم مستقبلاً.

• ليـس هـذا مـا يزعجني، وإنمـا أن يختاروا فتـاة لأن أباها صديقٌ للمدرب ولا شيء أكثر، هذا ما أحرق قلبي!

• لعن الله هذه العادات، فأنا لا أعرف متى سيسـصبح هذا العالم نقياً طاهراً.

• لا أعتقد ذلك. (قالتها وهي تمسح دموع الألم والقهر).

تمشيا قليلاً في الجامعة، تحدثا مطولاً، أصبحت العوائق بينهما قليلة، جلسا على مقعده وأشعل غليونه فوراً.

• ما هذا الشيء؟

• إنه غليون، ألا تعرفينه؟

• بلـى! ولكـن غريـبٌ جـداً أن طالباً في الجامعـة يصطحب غليوناً ويدخنه.

- أنا أعشق هذا الشيء؛ فهو يذكّرني دائماً بأستاذي الذي علمني العزف على البيانو.
- جميل جداً، لكن غريب!

عاد في اليوم التالي واصطحب معه ورقة كتب فيها رسالة يودّها لو تنفّذها؛ فهذا سيساعده كثيراً في أن يدرس بجدٍ وارتياح، كفيلين بنجاح يثلج صدر أمه.

فتحت الورقة فاحمر وجهها، ابتسمت كثيراً لما قال، فكّرت في الشيء الذي فكّر فيه ليكتب مثل هذا الكلام، هل هو صادق أم كاذب؟! لم تعرف الجواب وتركت الأمر للأيام.

«إلى صاحبة أجمل ابتسامة رأيتها حتى الآن:

عندما أنظر إلى وجهك الجميل، رجاءً!

لا أريد أن أرى تلك الكشرة المعتمة التي لا تنبئ بالإنتصار، أريد أن أرى الإبتسامة الجميلة المشرقة التي تشع نوراً وضياء كالأقمار، واضحة بهية كالشمس في وضح النهار، تفوح عطراً وعبيراً كأجمل الأزهار، تنظر إلى كل من يكرهك باحتقار، جاثمة على صدورهم بإصرار، تتحدى العالم وتقول بافتخار: أنا من سلبت بجمالها عقول الصغار والكبار!»

- ما هذا الكلام! ستفهم حتماً هذه المرة أنك تحبها. (قال أحمد).
- ليس مهماً، المهم أن أفرّغ ولو جزءاً صغيراً مما يجول بخاطري وأرتاح؛ فقد تعبت من الإنتظار؛ ابتسامتها لا تفارق عقلي ولا قلبي، كلّ حواسي تعطّلت وأصبحت تعمل لصالحها، لقد تعبت حقاً، ولا أريد أن أرسب هذا الفصل بسبب خجلي من

مصارحتها بشيء ليس عيباً وليس حراماً.

لقد أصبح فضل على وعي كامل ويقين، بأن الحب ليس جريمة نعتـرف بهـا، وإنما هو شـرف عظيم ووسـام، يوضـع على صدورنا، يُثبِت لنا ولغيرنا، بأننا قد تخطينا مرحلة الجثث المتحركة، وأننا قد ارتقينـا إلـى مرحلـة الإنـس والبشـر؛ لم يقل «بسـبب خجلي من أن أعتـرف لهـا»، بـل قال «من مصارحتها». لنترك هذا الآن، ولنعدْ إلى حديث هذين الإثنين!

- وإن رفضَت ما كُتب بالرسالة؟
- لن ترفض، فهي بالتأكيد تعلم بما أشعر به ولن تقبل لي السوء.
- جنس حواء يا صديقي ليس له دين، تراها بشكل وتكون بما ليس له علاقة فيه، هذا هو الجنس الناعم اللطيف، أو ما يدعونه بذلك.
- هذه أقاويل لا تغني ولا تسمن من جوع، أنا أحبها ولا أعرف أيّ شيء آخر.
- هنّاك الله! (قالها ضاحكاً بسخرية).
- نعم هنّاني الله، وابق أنت في سـخريتك هذه ودعني أذهب إلى البيت.
- وماذا ستفعل بالبيت؟ ابق قليلاً بعد!
- لا يا صديقي؛ أريد أن أسجل موسيقاي، فأنا انتظر اليوم الذي أنتهي فيه من تسجيلها على أحرّ من الجمر، أراك لاحقاً، وأتمنى لك رحلة جميلة، سلام!
- سلام!

كل يـوم يذهـب فيـه إلى الجامعة، يعود عاقـداً عزماً أكبر على إخراج قطعته الموسـيقية الأولى بأبهى صورة، يرى ابتسـامتها فتتبدد مخاوفـه ويـذوب حزنـه، لقـد تدفقت ينابيع روعةٍ ابتسـامتها في كل خلية من خلايا جسده الصغير، كانت ابتسامة سحرية حقاً، لكن هذا السـحر سـرعان ما أصبح جمراً يقضّ مضجعه، فمتى سـيأتي اليوم الذي يبوح لها بحبه؟

مضـت أيـامٌ بلياليهـا علـى التسـجيل، واجـه فيهـا الكثيـر مـن المتاعـب والأخطـاء، كان تدخين السـجائر خلـف المنزل مع القهوة عـزاءه الوحيـده؛ لقـد كانت تجربته الأولى في تسـجيل الموسـيقى، والذي أسعفه كثيراً، هو أحاديث أحمد المطولة عن طرق التسجيل والمونتـاج مـذ بدأ العمل في الأسـتوديو، والأهـم من كل هذا، أنها لـم تخيّـب ظنـه ونفّذت ما طلب منها في الرسـالة، فكان هذا وقوداً دفعه لتسجيل موسيقاه مطمئناً ممتناً لها في نفس الوقت.

بعد فترة دامت ما يقارب الأسبوع ونصف الأسبوع، وفي طريق عودتـه إلـى البلـدة، تلقـى فضل اتصالاً من صديقـه أحمد؛ فقد عاد لتوّه من الأردن، ذهب لزيارته، تحدثا قليلاً، ثم سأل أحمد مقاطعاً سؤال صاحبه قائلاً:

- دعني من الأردن ومن السـفر الآن وقل لي، هل انتهيت من تسجيل موسيقاك؟
- نعم، لقد انتهيت من تسجيلها البارحة!
- إذاً، هيا بنا إلى بيتكم لنسمعها!
- لا، ليس هناك أي داعٍ للذهاب إلى بيتي.

قـام فضـل مـن مرقـده، وبخطى ثقيلة وقلب كسـير، وصل إلى المسجل، شغّل القرص المضغوط وانتحى جانباً يدخن السيجارة تلو الأخرى، انتهت المعزوفة فطلب صاحبُه أن يشغلها مرة أخرى، ابتسم بخفر وأعاد تشـغيلها. كان أحمد يسـتمع لها بشـيء من الإسـتغراب المصحوب بابتسامة يشوبها بعض الغموض.

- أأنت من ألّف هذه الموسيقى؟ (قالها أثناء سماعه للموسيقى).

ابتسـم فضل، وسـحب سيجارة أخرى، واكتفى بالصمت الذي كان يخفـي نوعـاً مـن الفرح الكذوب، انتهت الموسـيقى مرة أخرى فقام أحمد من تلقاء نفسـه وشـغّلها مرة ثالثة، أخذ لنفسـة سـيجارة وملأ كأسـاً آخر من القهوة وابتسـم، فرغا جلياً من سـماعها ثلاث مرات بمكبرات الصوت في غرفة أحمد.

- أقسم لك، لو أنك أنت من ألّف هذه الموسيقى، لأسجلها لك مرة ثانية في الأستوديو.
- لا يا صديقي، شكراً؛ فأنا أعرف كم أنت رجل خدوم ولا تقصر، ولا أريد أن أثقل كاهلك بمزيد من العمل، فما لديك يكفيك!
- وما لك تبدو حزيناً كئيباً هكذا؟

-3-

اليوم هو السبت، دقّت الساعة السادسة مساء، توجه من فوره إلى غرفته ولبس أجمل ما عنده، قميصاً أزرقَ وبنطالاً كحلي اللون، حذاءً أسود طغت الصبغة على كل ملم فيه، مشّط شعره ومسح نظارته، رشّ من عطره الخاص، كأنه اليوم الذي سيتوجه فيه لطلب عروسه التي طال انتظار قبولها، اليوم سيخرج من بيته في أبهى صورة له؛ ليقدم أولى إنجازاته الموسيقية التي اعتقدَ أنها تفوق في جمالها كل جمال.

واثق الخطوة يمشي ملكاً وصل إلى بيت أستاذه محسن، استقبله بكل حفاوة وترحاب، أشاد بأناقته التي ما لمح منها شيئاً في أيّ من لقاءاتهما السابقة، قدم له كأساً من العصير بلّ به ريقه، دخنا الغليون سوياً وعزفا القليل من البيانو، لم تفارق الإبتسامة وجه الشاب الطموح، لم تنتزع قساوة والده منه الأمل وحسّ الدعابة والمرح، صفق له الأستاذ محسن على عزفه الجميل وذم نفسه مازحاً.

- قلت لي أنك تريد أن تفاجئني!
- نعم يا أستاذ، وأتمنى أن تنال المفاجأة إعجابك.
- هات ما عندك!

قام الشاب من مقعده على البيانو، وبخطى سريعة وقلب ينبض بالفرح، وصل إلى المسجل، أداره وفتح مشغل الأقراص المدمجة،

ولا تزال عينا الأستاذ محسن تنظران بشيء من اللبس والإرتباك على الشيء الذي سيظهر، أدخل قرصه المدمج وضغط على زر التشغيل، أسرع ليجلس بجانب أستاذه.

بدأت أنغام الموسيقى تتمايل في أجواء الغرفة الكبيرة، ظلّ مبتسماً فرحاً بما يسمع، كانت نظرة أستاذه تبعث في نفسه بعض القلق؛ فلم يكن بادياً في تلك النظرة شيءٌ يبعث على الأمل، انتهت المعزوفة وحان موعد المفاجأة.

- لمن هذه الموسيقى؟
- لي يا أستاذ، كيف تراها؟
- جميل، ولكن عليك أن تتطور كثيراً على ما قدّمت! (قالها بشيء من الإشمئزاز).

انطفأ وميض الفرح في عيني الشاب، وذابت ابتسامته، تساءل في خاطره: «أهذا هو نتاج كل هذا التعب والسهر والمعاناة؟ لا بد أن الأستاذ يمزح ليقهرني قليلاً».

- هل أعيد تشغيلها فنسمعها مرة ثانية؟
- بالله عليك يا ولدي، سمعناها مرة وهذا كفاية، بل أكثر من اللازم.

زاد تعجب الشاب من هذا التصرف والجواب؛ فلم يكن يتوقع يوماً أن تكون هذه هي النتيجة التي سيلقى بعد كل هذا الجهد.

- لا تفهم قصدي خطأ؛ فهذه محاولة وتعلّم منها الكثير، وعليك أن لا تفكر يوماً للحظة بأن كل من جاء وألف نغمتين أصبح مؤلفاً موسيقياً، لا تفكر بذلك مطلقاً، وما عليك فعله الآن،

هو أن ترمي بقرصك المدمج هذا في أقرب حاوية تراها على الطريق!

لم يصدق الشاب ما يتفوه به معلمه الذي اعتقد طيلة سني معرفته له، بأنه الشخص الوحيد الذي سيؤازره ويقف إلى جانبه، بعد أن تفرد به هذا العالم الذي لم يدرِ كيف تحايل عليه ليسرق منه بسمة أضاءت ما أطفأه والده، ويبدو أنها ستتبدد إذا كان الجواب «لا».

أخرج قرصه واستأذن أستاذه وقفل راجعاً إلى عنبتا، توجه من فوره إلى بيت صاحبه أحمد، جلسا بصحبة كأسين من القهوة؛ علّها تخفف أثر ما حلّ به اليوم.

- هل فهمت الآن ما سبب الحزن والكآبة هذه يا صاحبي؟
- لا! لم أفهم إلا شيئاً واحداً، وهو أن عقلك هذا أصغر من خرم الإبرة التي أخيط بها جواربي. (ألحق جوابه بضحكة تخللها قليل من القهقهة ثم أردف بوقار): أنت لا تتبع لرأي أحد، أنت تنتج الموسيقى وتتركها، والناس أحرار في تقبلها أو رفضها، ليس عليك أن تجلس تندب حظك وتشكو الزمان، هذا لا يفيد شيئاً، الشيء الوحيد الذي عليك فعله الآن، هو أن تذهب وتشغل الأورج وتبدأ بغزل معزوفة جديدة كهذه التي سمعناها قبل قليل، والتي لا أزال لا أصدق أن واحداً متشائماً مثلك ينتج مثل هذا الجمال الموسيقي الذي يبعث على التفاؤل والأمان، تباً لك يا رجل!

في الطريق إلى بيته، وعلى الرغم من كلام صديقه ومديحه

الجميل، إلا أنه أبى إلا أن يفكر وكثيراً في ما حل وما يحل بحاله دائماً، تساءل: «لماذا هي الحياة هكذا؟ لماذا لا نملك أن نكون سعداء أبداً؟ لمَ لمْ يخلق الله هذه الدنيا بلا مشاكل ولا قواهر؟ ما الضير في أن يجد الإنسان ما يشتهيه بلا تعبٍ ولا قهرٍ ولا حزن؟ لماذا يتعب الإنسان ويُهدّ كاهله بلا مقابل ولا شيء يُذكر؟!».

أطلق العنان لمخيلته تبحر في كلمات الأستاذ محسن ولماذا تفوّه بهذه الكلمات، «ألا يمكن أن يكون ناصحاً بلا إحباط؟» تساءل في نفسه، «هل يتصرف الغرب مثلنا؟ هل يقابلون نتاج مواهب شبابهم بالسخرية والإشمئزاز، وكأنها قرف جيء به من مزابل النسيان؟ هل ستكون كلمات الأستاذ محسن جبلاً يتربع فوق أحلامي وموهبتي؟ هل أستسلم وأندب حظي ليل نهار؟ أم آخذ بنصيحة صاحبي أحمد؟».

وصل إلى البيت، ولم ينس في طريق عودته من طولكرم، أن يرمي بغليونه في أقرب حاوية رآها بعد بيت الأستاذ محسن؛ علّه ينسى ما حكم به على نتاجه، تمعّن في كلمات صاحبه أحمد، فكّر كثيراً في أن يجعل من كلمات أستاذه وقوداً سريع الإشتعال، يشغِّل به محرّك جِدِّه لينتج المزيد والمزيد؛ فالنفط مادة سميّة من الطراز الرفيع، لكنها تشغّل أضخم المحركات، أليس كذلك سيدي القارىء؟

قرّر المضي قدماً في موسيقاه، من دون أن ينغص عليه منظر غليونه الذي أصبح أقبح من القُبح؛ فهذا الغليون وبعد كل هذه الصداقة بينهما عبر سنين، أصبح الآن مدعاة إحباط لا أكثر؛ تذكّره دائماً بمن هو ليس أهلاً لأن يبقى في تلافيف الذاكرة.

جلس يعزف، وعزف عقلُه عن كل شيء سوى التفكير في ابتسامتها، تلك الإبتسامة التي أشعرته بالدفء والسعادة والأمان، فكّر كثيراً وملياً في السبب الذي يجعلها تريد التفكير للدخول في علاقة حب عذرية نقية، تساءل: «لمَ لمْ تقل نعم في باديء الأمر؟ وإن قالت لا، فهل هي لا تريد لأنها لا تريد؟ أم أنها تحب شخصاً آخر ولا تريد البوح لي؟ أم هي لا ترى فيّ الشخص المناسب لها؟ لكني أعزف وهي تعزف، وهذا سيجعلنا متفاهمين إلى أبعد الحدود!».

-4-

إنه يوم الأربعاء، أشعل غليونه وجلس يستمع لبعض الموسيقا الكلاسيكية، مرّت من أمامه، فتقدم نحوها مسرعاً وطلب التحدث إليها، أحضر كأسي قهوة وجلسا.

- لم لا تبدين سعيدة هذا اليوم؟
- لا، ليس هناك أي شيء مهم.
- كيف؟ وكشرتك تخنقني؟

ابتسمت بخفر ولم تقل شيئاً.

- هل أغضبك ما قرأتِ بالرسالة؟
- لا، لم يغضبني طبعاً، إنه كلام جميل جداً، ولو كنت غاضبة لأخبرتك مذ قرأتها في الأسبوع الماضي.
- وهل سبب كشرتك يتعلق بي؟
- بالطبع لا، فأنا غاضبة من شيء يتعلق بالدراسة.
- أريد ان أقول لكِ شيئاً! (بدا مرتبكاً بعض الشيء).
- تفضل.

صرّح لها بحبه، ولم يتردد لحظة في إطلاق جملته «I love you» باللغة الإنجليزية، كانت صعقة لها، لم تتوقع أن يكون بهذه الجرأة وهذا الجنون، ابتسمت له وقالت: ما الشيء الذي جعلك تحبني؟

- لا أدري، منذ أول يوم رأيتك فيه، شعرت بقلبي يرفرف مع الطيور، انتشلتني من عوالم اللاحياة واللاموت، لا أدري ما الشيء الذي يوجد بكِ ولا يوجد بالأخريات، ولكني أكيد من وجوده، ما رأيك؟
- أريد أن أفكر!
- خذي وقتك وأكثر.

تركَت المقعد وذهبَت، تذكرت الرسالة وما قاله عن مرورها إلى الكلية، تساءلت حائرة: «هل فعلاً أن هذا الشاب معجب بي ويحبني، ويريد أن أكون سعيدة دوماً، ولا يريد أن يراني عابسة؟ أم أنه كمعظم الشباب، يتلذذ بالكذب والخداع ليصل إلى قلب فتاة، يدوسه بقدميه بعد أن يطمئن بأنها قد أحبته بكل صدق وإخلاص متفانيين؟ يخدعها ويرميها في مستنقع الإنتقام والهلاك والعذاب، لتصبح كارهة لكل شيء ذكوري في هذا الوجود، ليجلس بعد ذلك بين أصدقائه ويبدأ باستعراض عضلاته، وكيف استطاع بذكائه ودهائه الخارقين أن يوقع بقلبها في شبكة الحب، ليتفرد بانتصار هو العاشر في هذا الأسبوع أو ذاك. لماذا يفعل الناس هذا؟ ألا يعلمون أنها قمة الحقارة والنذالة والكفر بالله، أن نضرم النيران في حقلٍ زرع فيه أحدُهم كل أحلامه وأمانيه، وأودعها أمانة في أعناقنا؟!».

لم تعرف بم تواجه هذا الشاب الذي بدت عليه علامات الصدق جلية وأثبتت ملاحظاته ذلك، شُلّ تفكيرها، فكرت في صديقتها نيرمين، التي أصبحت لا تطيق التعامل مع جنس آدم أو تنظر إليهم حتى، تذكرت موقفها وقت قصدهما فضل يسأل عن كلية الفنون،

«هل صحيح أن المرء يتحول إلى حيوان مفترس يدوس بقدميه كل ما يذكره بمن خانه؟ هل صحيح أن الحياة تسوَد في عيني الضحية ولا يصبح قادراً على مواجهة الحياة بحيوية وإقبال؟ هل صحيح أن هذا ما يحصل؟» أسئلة سرقت النوم من عينيها وألفتها أسيرة السهر، لم تعرف كيف سيكون حالها عندما ستواجه فضل.

رفعت الشمس ستارة الليل، وحلّ يوم الخميس بإشراقة ذهبية، طلع النهار ولم يزل فضل جالساً على فراشِه، غارقاً في التفكير والحسابات، دقّت الساعة السابعة إلا الربع، لقد حان موعد الذهاب إلى الجامعة؛ فأستاذه لا يتهاون في إدخال أي طالب يتخلف دقيقة عن موعد المحاضرة، هزّ رأسه بسخرية وقال: «هكذا نحن العرب، دائماً ندقق على كل ما هو شكلي ونلقي بالجوهر في المزابل!».

مضى اليوم يجر ساعاته ثانية ثانية، معرضاً عن مراعاة شعور صديقنا إن لم تقبل ميّ حبه، مضى اليوم الأول والثاني فالثالث.

أطل يوم الأحد أخيراً، اليوم التي حددت فيه ردّ الجواب بالقبول أو الرفض، ذهب إلى الجامعة، ألفى إلى جليسه الخشبي، أتعبه التفكير في كلام الأستاذ ليلة البارحة من جهة، وانتظاره لردها في هذا اليوم من جهة أخرى، أشعل سيجارته العاشرة وانتظر قدومها.

أتت وفي جعبتها الكثير، جلست، وعلامات الحيرة بدت واضحة على وجهها الملائكي البريء، لم تتقول بشيء لدقيقة، ثم التفتت إليه وسألته عن حاله.

- الحمد لله، كيف حالك أنتِ؟
- أنا لست بخير.

- لماذا؟ (قالها بعصبية أضحكتها).
- لا، ليس من أي شيء، وإنما أنا غاضبة من نفسي؛ فأنا أعرف أنك إنسان طيب، وإعجابك بي واضح وأكيد، لكنني ومع كل هذا، لا أستطيع الدخول في علاقة عاطفية!
- لماذا؟ (قالها بحزن شديد).
- ليس الأمر يتعلق بك أنت شخصياً، وإنما لأني لا أجرؤ على الدخول في علاقة حب أياً كانت؛ فهذه العلاقات تشوّش العقل وتأخذ المرء إلى ما لا يدري، وأنا لست في وضع يسمح لي بالخطأ.
- أي خطأ هذا؟ (باستغراب شديد قالها).
- لا، ليس هكذا، أنا أقصد وضعي في الجامعة بعد أن حوّلت تخصصي؛ فعليّ أن أنهي دراستي بسرعة ومن دون لهو وتأجيل، عدا عن ذلك، إن الحب يربط الإنسان بأشياء لا تكون غالباً مرضية للطرفين، فقد تتولّد المشاكل من دون أن ندري، أعتذر جداً إن كان كلامي لا يروق لك.

هزّ رأسه بيأس قاتل وقال:

- عندي طلب واحد.
- ما هو؟
- أن أراكِ غداً؛ أريد أن أعطيك شيئاً.
- ما هو؟
- غداً ستعرفين.

لقد استنفذ هذا اللقاء الكثير من السجائر وأعواد الثقاب، إنه

التوتر الشديد؛ كان ردّها صعقة كهربائية شلّت عقله وتفكيره لأيام، فكّر في كلامها وتفحصه جلياً، واستنتج أنها أرقى من قابل في حياته، أخذه تفكيره ثانية ليربط الموسيقى بتصرفها الراقي والحضاري بكل ما تعني الكلمة من معنى، قال في نفسه «فعلاً، الموسيقى شيء أرقى من الرقيّ وأسمى من السماء!».

على الرغم من رفضها لطلبه، إلا أنه قد عرف قيمتها وجمال روحها، لم ينظر إليها إلا من منظور الألوهية والتقديس، منظور الصدق والحرص والكمال. فكر في ليله الطويل بها، تساءل: «هل يمكن أن نظلّ صديقين؟».

أتت في اليوم التالي وجلست مبتسمة بفتور:

- ماذا تريد أن تعطيني؟!
- قبل هذا، أريد أن أقول لكِ شيئاً، ولا تنزعجي رجاءً، «أنا لا أستطيع أن نبقى صديقين!».
- لماذا؟ (باستغراب شديد قالتها).
- لأنني أحبك.

ابتسمت بخجل شديد، وتابع:

- الصداقة يمكن أن تتطور لتتوج حباً، لكن الحب لا يتنازل ولا يرضخ للواقع ليتقوقع وينتهي به المطاف إلى صداقة، عدا عن ذلك، رؤيتك ستؤلمني كثيراً؛ ستذكرني دائماً بأغلى ما فقدت، وأنا لست في وضع يتحمل المزيد من القهر، والآن تفضلي!
- ما هذا الذي في الظرف؟ (بدت علامات الحزن واضحة على وجهها البريء).

- ستعرفين وحدك! (وهم بالقيام).
- قبل أن تذهب، تفضل هذه!

نظر إليها بشيء من العجب.

- ما هذه؟!
- لم يعجبني منظرك البارحة وأنت تشعل السجائر بأعواد الكبريت.

ابتسم وتابعت:

- صحيح، لمَ لمْ تدخن الغليون البارحة، إنها المرة الأولى التي أراك تدخن السجائر فيها؟
- قصة طويلة، دعكِ منها.
- على راحتك.
- ولكن لم تخبريني لماذا هذه؟ يبدو أنها ثمينة جداً!
- دعك من هذا، خذها وأشعل بها السجائر بدلاً من عيدان الكبريت البدائية.

ذهب وذهبت، ذرفت عيونهما دمعاً، آلمها كثيراً ما قاله، وعزّ عليها فقدان صديق كان سيكون أوفاهم، ابتسمت لحصولها على تذكار يذكرها به، وحزن لتذكارها كثيراً؛ فلم يكن هيّناً عليه أبداً ذهاب أحب الناس إليه وتقوقعه في هدية مهما كانت.

جلس في مقعد آخر بعيداً عن كلية الفنون، تمعن كثيراً في قداحته الجديدة، غاص في لونها الجميل اللامع، أصبح اللون الأخضر أحبّ الألوان إليه، أشعل بها أول سيجارة بعد رحيلها الأبدي.

على مقعده عادت وجلسَت؛ لم تجد مكاناً أكثر خلوة، فتحت

الظرف فأطلت ورقة وردية، سحبتها وقرأت:

«جلستُ أحاول اختصارك في حروف، فلم أجد فيكِ شيئاً من المألـوف، لـم تكـن لغتي ولـن تكون، أيُّ اللغـات، يوماً قادرة على نسـج ملاحـم أو جداريـات، تصـف جـزءاً من سـحر لمـحِ جمالك الطاغي على كل جمال.

كلمـاتٌ قليلـة، هـي ما خطر علـى بالي في هذه الليلة الحزينة، ربما هو ضيق الوقت، لكن وعلى أية حال، أعتذر جداً عن عجزي مـن الإقتـراب مـن حافـة الواقع الذي رأيت، فلم أجـد كلمات أكثر بلاغة أودّع بها أغلى من أحببت:

اغرورقت عيناها، وبللت قطراتُ دموعها كل حرف من حروف الرسالة، بكت وناحت وتابعت القراءة بصعوبة.

مـيّ التـي مالـت لهـا طوعـاً رمـوزُ الكبريـاء
لـم تنكسـر يومـاً وظلّـت أنجمـاً تحيـي السـماء
قابلتهـا يومـاً فصـارت فـي فـؤادي كالدمـاء
مـرّت سـريعاً فـي خيالـي أذهبـت كلّ الشـقاء
مـيّ التـي سـرّ الإلـ ـه بسـرّها سـرّ النقـاء
ظلّـت كحاميـة لنـا منهـا يُسـاق لنـا الشـفاء

وهذا قرص مضغوط، سُجلت فيه أولى نغماتي الخاصة، ليست موسـيقى بقدر ما هي عصارة من سـعادتي التي رشـفت منها القليل، لينسـكب باقـي الـكأس ويبلـل وجهي بالدمـوع ليل نهـار، «معزوفة ابتسـامة» أهديهـا إلـى صاحبة أجمل ابتسـامة رأيتهـا في حياتي، إلى

الإبتسامة التي رسمت كشرة على وجهي لن تزول».

ازداد نحيبها وأصبح بكاؤها مسموعاً، غرقت الورقة في دموع الخجل والإنكماش لما حصل، طوت الورقة وأعادتها إلى الظرف، توجهت من فورها إلى البيت وأهملت ما عليها من محاضرات، وضعت القرص المضغوط وشغلته، استمعت للموسيقى بشيء من الغرابة والحنين، ترجمت كل نغمة فيها، أحست بفلسفتها، تيقنت من صدقها، قالت في نفسها مواسية: «أبكي يوماً ولا أبكي كل يوم؛ فأنا لست عالمة بالغد وما قد يحدث» ثم لاح منظره في فكرها فتابعت: «ولكني بالتأكيد سأفتقده!».

على الرغم من تأثير كل حرف من حروف الرسالة وسحر كل نغمة من أنغام «ابتسامة» عليها، إلا أنها ظلّت في الموقف الصلب الذي لا يتزحزح، والسبب المباشر ليس في قوة عزيمتها فحسب، إنما أيضاً في ما حدث مع صديقتها نيرمين، بالرغم من الحب الشديد الذي أبداه حبيبها لها؛ قالت ميّ والدموع تملأ عينيها: «إن الزمان يخبئ لنا الكثير والكثير، وما هو اليوم، غالباً، ليس على حاله غداً».

الفصل الخامس

-1-

استغل انشغال والده بحراثة أرض في مدينة طولكرم، فذهب إلى مزرعتهم؛ فهذا بالتأكيد سيضمن له تفريغ كل ما احتقن بداخله من دموع، إلا أنها لم تكن دموعاً، بل كانت دماً ينبع من قلبه ليصب من صنبور عينيه على الأرض، لقد صرخ ودوّى صراخه في كل أرجاء المنطقة، لم يأبه لذلك وتساءل: «لماذا لا تكتمل أية فرحة من أفراحي؟ لماذا صندوق سعادتي فارغ ومتعفن؟ لماذا تعاستي تنضج في كل يوم وتبيض بلا حساب؟!».

إلى بيت صديقه أحمد، ذهب يجر نفسه كالقتيل، جلس وإياه، حدثه عما حدث بالتفصيل الممل، أشعل أحمد سيجارة، وبدأت المحاضرة:

«أنت صرّحت بحبك لها، وبهذا، أنت تكون قد فعلت ما عليك فعله، ولكن دعني أقول لك شيئاً: في الحب يا صديقي، ليس هناك ما يسمى «حبٌ من طرف واحد»؛ لكي يسمى الحب حباً، يجب أن يكون متبادلاً من كلا الطرفين، وإلا كان اسمه هراء وغباء؛ لأنك عندما تعجب بشخص بحدّ عينه، تكون هناك شمعة قد أُشعِلت في قلبك، النور المضيء هو الحب، الخيط هو الوقت، والشمع هو الصبر، يمضي الوقت حتى تشعر بأن الشمع قد ذاب وأوشك على الإنتهاء، في هذا الوقت، يجب عليك أن تصرّح بالحب، لكي

لا يموت النور قبل احتمال ميلاد احتمال جديد؛ لأنه إذا كان الرد إيجابياً، أنت تكون قد امتلكت الشمس شمعة تضيء دربك إلى أبد الآبدين، أما إذا كان الرد سلبياً، وهذا ما يحدث غالباً، فهنا، يجب عليك أن تتوقف قليلاً بينك وبين نفسك، تفكر جيّداً وبإيجابية بحتة؛ حتى تدع الشمعة تذوب بهدوء وتختفي. فكّر جيداً في هذا الكلام! وإن لم تقتنع به، وهذا ما سيحدث على الأغلب، فاقتنع بأنك سوف تبقى قابعاً في غار من الظلام والوحدة، لن تبصر منه إلا أيامك تحترق وتذوب شمعة شمعة، وستشرق الشمس وتغيب آلاف المرات، دون أن تدرك ظهورها البتّة.

دعني أستطرد قليلاً لأقول لك، بأنه حتى لو كنا في خضم علاقة حب ثم خاننا من نحب، فليس علينا أن نقلق أو نحزن لهذا الشيء؛ لأن من يخون، يكون ومن دون أن نطلب منه، قد أثبت لنا بأننا أشخاص جديرون بالتقديس؛ لأننا أمناء وصادقون. وفي نفس الوقت، يكون من يخون، قد تبرع بسخاء ومن دون سعي منا، ليؤكّد لنا بأنه جرذ سفيه، وليس للصدق مكان فيه، ولك أن تتخيل نفسك جالساً بصحبة أحدهم، ثم يولي هارباً، صارخاً في نفس الوقت بملء فيه: «أنا تافهٌ أنا حقير، أنا خائن وسفيه»، في هذا الوقت، إذا لم تشفق عليه وتدعو له بالشفاء العاجل، ستكون وبأمس الحاجة، لمن يدعو لك أنت بالشفاء وليس من يخون.

ظلّ فضل ساكتاً، لم يردف بشيء سوى تلك الدموع التي كانت تنهال على وجهه بصمت خانق، تابع أحمد:

إذا كان من يتعرض للخيانة لا يجدر به الحزن، بل يجدر

بـه الفخـر بنفسـه لأمانتـه، فكيـف بك وأنت لم يحدث معك شـيء يُذكر؟!»

في ذلك اليوم، كتب قطعة شعرية يرثي بها حبه الميت، وعلى الرغم من كل ما قاله أحمد، إلا أن الأسى والآهات قد وصلت به إلـى الحضيـض، فلـم يعد يرى أي شـيء على حاله، كل شـيء كان مقرفاً.

لم تكن دراسته في الجامعة ممكنة في هذه الوقت العسير، لاح في فكره المستقبل الذي لولا والدته وأخته الصغيرة ما كان قد بدأ بالعمل عليه، فكّر في سرّه «بعد رحيلها، هل يكون سيناريو تعاستي قـد اكتمـل، وبالتالـي تكـون كل الأبواب قد أوصدت ولـم يعد هناك أيُّ منفذ لتسـلّل أي خيط أمل مشـرق؟» هل حقاً اكتمل السـيناريو لتبـدأ مسـرحية حياتـه البائسـة؟ سـؤال يطرح نفسـه، لكـن، ماذا عن الشـيء الأهـم فـي حياته؟ «الحلم»، حلم الوصـول إلى العالمية في الموسيقى، هل سيسمح ثانية للقدر أن يتحكم بعزيمته ويثنيها؟ هل سـيطلق له العنان ليعبث به كما يشـاء؟ إن الظروف لا تسـمح بمزيد من التدمير والإحباط.

لم يكن من خيار أمام هذا الشاب إلا أن يطلب من والده بكل وضوح، أن يؤجل سنة دراسية، من بعدها يتابع مشواره في الجامعة.

- مرحباً.
- أهلاً! (بصوت غلب عليه التأفف والإزدراء).
- أريد أن أطلب منك شيئاً مهماً، وأتمنى قبولك له!
- ماذا تريد؟ مصيبة ككل عام؟

- لا، ليست مصيبة، وإنما حلّ لمصيبة قد تحدث، أريد أن أؤجل سنة دراسية!
- لماذا يا حبيبي؟ (ناظراً إليه بشيء من الإحتقار).
- أنا أشعر بالتعب، وأظنني لست في وضع جيد لأدرس العام القادم كما هو منوط بي.
- طبعاً يا حبيبي، تركت الصلاة وتريد من الله أن يوفقك، أتظن أن الله يعمل لحساب والديك؟!
- هذا ما حدث، وأنا أريد أن أؤجل العام القادم!
- اسمع! العام القادم لن يؤجل، وستكمله وتتخرج، وبعدها، افعل ما يحلو لك، أنا لست موظفاً عند أهلك، تؤجل وتكمل كما تشاء!

ماذا بوسعه أن يفعل الآن؟! لقد وصل به الأمر إلى الحد الذي لا يطاق، يريد أن يخرج من البيت إلى حيث تسوقه قدماه، لكن، كيف السبيل إلى هذا؟ فأمه ستموت حسرة عليه، وأخته سيضيع مستقبلها وتتشرد.

توجه إلى أمه، وطلب منها التحدث إلى أبيه؛ علّه يوافق؛ فالأمر لا يتحمل التهوّر، ولا يستحق ضياع الحلم الذي طال انتظاره.

كان يعزف الموسيقى ويفكّر في ما سيكون عليه حاله في المستقبل، يتساءل شارداً: «ماذا ستكون مهنتي؟ ماذا سيكون مصيري؟!» كان مستغرقاً في تفكير شلّ عقله، يفكر فقط، ولا تدري يداه ما تعزفان، سرقه صوتُ طرق الباب من أفكاره، كانت أخته الصغيرة بتول، دخلت وجلست، طلبت منه أن يخبرها بما يريد؛

علّها تكون قادرة على مساعدته.

• مرحباً.

• أهلاً وسهلاً، كيف حالك يا بتول؟

• الحمد لله أنا بخير، بيد أنك أنت الذي لا يبدو على ما يرام!

• ومن قال لك بأني لست على ما يرام؟

• سمعت أمي تتحدث لأبي بشأنك، وسمعت صراخه عليها قبل قليل.

تفجرت عيناه غضباً، واحمرّ وجهه وضاق نفَسه، أجهش من فوره في بكاء هستيري، هرعت أخته من فورها وأخبرت والديها بما حدث، أتت الأم والأب من فورهما، نظر فضل إلى والده، لم يخطر بأي شيء على الرغم من كل ما تقولت به الوالدة لشدّ أزر ولدها الحزين.

خرج وأخرج معه علبة السجائر والقداحة الخضراء، وقبل أن يغادر باب غرفته، سحب سيجارة وأشعلها أمام والديه، كانت إخطاراً بالتمرّد واللامبلاة، التي وُلّدت نتيجة الضغط والإكراه المتسارعين.

توجه إلى بيت صاحبه أحمد ولم يجده، أطلق العنان لقدميه تقودانه إلى حيث تشاءان، ذهب ودخان سجائره لم ينقطع لحظة، ساقته قدماه الى ما يعرف بـ«ليّة بلعا» -بعد عنبتا بقليل- ظلّ ماشياً يفكر بانهزامية سوداء، لم يخطر بباله سوى القهر والضيق والقرف الذِين أصبحوا رفقاء دربه الأوفياء.

دقّت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ولا بد من العودة إلى البيت؛ فالمتنزّه أصبح فارغاً وسيقفل بعد دقائق، تردد كثيراً في

التوجه إلى بيت صاحبه أحمد؛ فالوقت متأخر جداً، ولا بد أن هذا سيكون محرجاً له ولعائلته، أراد أن يتصل به، إلا أن سورة غضبه قد أنسته أن يصطحب هاتفه النقال معه؛ فقد كان همُّه الوحيد هو السجائر التي بالتأكيد خفّفت عنه الكثير.

طرق باب المنزل فهرعت الأم وفتحته، كانت الدموع تذرف من عينيها الغائرتين، سألها عن أبيه.

- ذهب للبحث عنك ولم يرجع حتى الآن!
- لعن الله الساعة التي قدِمت بها إلى هذا المنزل التعس.

ربّتت على كتفيه ومسحت دموعه التي تعاقبت على وجنتيه منذ ساعات الظهيرة. في اليوم التالي، لم يذهب إلى الجامعة، ظلّ نائماً في فراشه، أتت إليه أمه وأفاقته وقرأت بعضاً من آيات القران الكريم عليه، وعدته بأن تبذل قصارى جهدها لتقنع والده بتأجيل فصل دراسي واحد وليس السنة كلّها.

بكى لما تتكبد والدته من جهد وتعب مضنيين، ربتت الوالدة مرة أخرى عليه ومررت يدها على وجهه الصغير، مسحت ما سال على وجهه من دموع.

ذهب إلى الجامعة في اليوم التالي، لم يقترب من المقعد الذي كان أعز أصدقائه، بل وحرص كثيراً على أن لا يقترب من تلك المنطقة مطلقاً بعد ذلك اليوم، إن الظروف هي ما أملت عليه هذا البعد؛ فلو عاد وجلس، سيظل طيف ميّ جالساً معه، يولّد أسى ومرارة هو بغنى عنهما، خاصةً في هذا الوقت العسير جداً.

كان جالساً بصحبة صديقه أيمن، الذي لم يقصر لحظة في

المواساة والتخفيف عمّا حل بصديقه فضل، الذي وجد فيه هو الآخر صديقاً مثالياً مخلصاً.

مضى هذا الفصل وكأنه الثلاث سنوات التي مضت، لم يعرف فيه مكاناً للفرح والبهجة، أصبح هذا العالم مظلماً لا يرى فيه سوى فوهة حلمه الصغير خافتة تضيء من بعيد.

على مقعده كانت تجلس كل يوم؛ علّها تلمح طيفه وتقنعه بأن يظلا صديقين؛ فلم تقتنع للحظة بصدق مقولته التي علّل بها فسخ أي علاقة بينهما.

كان هذا الفصل حافلاً بالمنغّصات؛ فقد كان يوماً جالساً بصحبة صديقه أيمن، يحدثه عن أحلامه وطموحاته التي يتمنى أن يرى شيئاً منها قريباً، ولكنه وفي أثناء استغراقه في الحديث، جاء شاب بدت علامات السماجة جلية على وجهه وفي تصرفاته، ألقى التحية عليهما وسأل أيمن عن سبب عدم قدومه إلى الكافتيريا البارحة، سأل عمّا إذا كان قد قطع عليهما الحديث، إلا أن أيمن فنّد هذا، وبيّن له أنهما يتحدثان عن أحلامهما المستقبلية. ضحك الشاب ضحكة شعر بعدها فضل بمغص شديد قاتل، سأل الشابُ عن أحلام فضل بنوع من المزاح السمج، لم يشعر فضل بالإرتياح أبداً عندما بدأ أيمن يشرح عن أحلامه الموسيقية ووصوله إلى أفخم قاعات العرض في أوروبا وغيرها، وكيف أن حلم العالمية دائماً يراوده ليلاً ونهاراً.

لم يتردد الشاب في إلقاء ضحكة مدوية ألحقها بتعليق «أنت مجنون؟! إذا أردت أن تحلم فلا تبعتد كثيراً!»، في هذا اللحظة، وصل به الضيق والقرف إلى حد لم يمنعه من الوثوب عليه وإشباعه

ضرباً، والذي زاد الطين بلة، هو عدم قدرة أيمن على القيام بشيء، فغضب صاحبه وعجزه، كانا سبباً في أن يبلغ الضرب حداً أصبح فيه الشـاب غير قادر على التنفس أمام هذا الكم المبرح من اللكمات، والشتائم التي كان دويّها يزداد مع كل ضربة يهوي بها فضل.

جـاء رجـال الأمـن واقتادوا الثلاثة إلـى غرفة ليدلي كل بدلوه، بيّن أيمن ما حدث بموضوعية، لم يتفوه فضل بأي حرف؛ فقد كان مستغرقاً في بكاء خانق لم يمكنه من الإجابة على أي سؤال، استأذن أيمـن أحـد رجـال الأمن وأخذ صاحبه السـمج إلى الخارج وبيّن له كبـر فعلتـه، وأمـام هـذا المشـهد المبكـي لفضـل، لم يتردد الشـاب بالإعتذار وبشدة لفضل، مؤكّداً لرجال الأمن أنه من كان السبب في هذا الخناق، ويريد أن ينهي كل ما حدث فوراً.

لـم يكـن مـن ردّ إلا «إن القانـون قانـونٌ، ولا بـد مـن اتخـاذ الإجـراءات المعمـول بهـا فـي الجامعـة». مسـح فضـل دموعه فور سماعه لهذه الجملة التي مزقت شرايين قلبه وعقله، تذكّر فوراً فتاته صاحبة الإبتسـامة الجميلة، عندما جاءت باكية تشـكو تهميش الحق والقانون، ردّ أيمن بشيء من القرف لما سمعه هو الآخر.

- وما الإجراءات التي يجب الأخذ بها؟
- أن يأخذ كل واحد منهما إنذاراً جامعياً.

هنـا توقـف كل مـن المتخاصمين عن التفوّه بأي حرف سـوى إبداء القرف من هذه الإجراءات المنغصة جداً، طلب أيمن الخروج مع صاحبيه، سُـمح لهم ذلك بعد الكشـف على البطاقتين: الجامعية والمدنيـة لـكل منهم وأخذ البيانات اللازمـة منها، خرجوا متوجهين

إلـى الكافتيريـا لاحتســاء القهـوة بعـد الصلحة التي تمـت بين فضل وحســام، بـدت علامـات الإنزعاج واضحة علـى الإثنين من الإنذار الجامعـي الـذي لا بـدّ آتٍ، بيـد أن أيمـن ظلّ محافظـاً على هدوئه يلقي بالنكتة تلو الأخرى، ثم هدأ من روعهما ووعدهما بأن الأنذار لن يتم، نظرا إليه بشيء من الغموض المصحوب بلمحة أمل، فبيّن لهما أن والده صديق لرئيس الجامعة وأنه سيتحدث إليه لإنهاء الأمر فوراً، وفعلاً، هذا ما حدث بالضبط.

-2-

انتهى هذا الفصل بمرّه ومرّه، لم تكن علامات فضل بالمستوى الـذي أراده؛ فمزاجـه المعكـر طيلـة الوقـت، حـال دون تركيـزه في الدراسـة وانشـغاله بالمصائب التي كانت تتهاوى على دماغه واحدةً تلو الأخرى.

عاد إلى بيته بعد انتهاء آخر امتحان في ذلك الفصل، شعر بأن جبلاً بكامله قد أزيح عن ظهره الكسير، لم يكن من أمر يشغل باله في تلك العطلة الطويلة سـوى تأليف الموسـيقى وكتابة الشـعر؛ علّه بذلـك يحاكـي أيـام البهجة التـي يبدو أنها لن تعود، كان يجلس كل يوم إلى أورجه ويسـتحضر ابتسـامتها السـاحرة، يسرق منها ما أمكن من نغمات يداعب بها ساعات يومه الطوال.

فكّـر وفكّـر كثيـراً، «مـاذا سـيكون موضـوع القطعة الموسـيقية التاليـة؟!» لـم يكـن من شـيء يجول في خاطره إلا الأشـجان، نعم، «أشجان» هذا هو العنوان الأنسب للقطعة الموسيقية القادمة، مضت أيام بلياليها يخطف النغمة تلو الأخرى من شعاع ابتسامتها المتسلل إلى عتمته الحالكة.

عمـل بتـأن لكي ينتج قطعة موسـيقية جميلـة، مضى ما يقارب الشـهر، أصبحـت نغماتهـا قيـد الإنتهاء، فوراً تناول السـلك ووصله بحاسـوبه المحمـول، بـدأ بتسـجيل الإيقـاع، لم يتمكن من تسـجيله

بسهولة، فكثيراً ما كانت تخطر على باله مستجدات، بالتأكيد، ستضفي رونقاً جميلاً يزيد من بهاء الموسيقى وتألقها، استغرق تسجيلها أسبوعين، ما بين القهوة والسجائر التي يكاد دخانُها لا ينضب.

فرح كثيراً بمعزوفته الجديدة، أحس بأن خيوط حلمه قد بدأ غزلُها من جديد، لاح في فكره والده، فهل ستبقى علاقتهما هكذا إلى الأبد؟ لماذا لا يتصالح معه وينسى كل ما حدث؟ بفكرة غبية جداً، قرر أن يُسمع ما جدّ لديه لوالديه، فهذا حسبما اعتقد، مدخل جيد ليتصالح مع والده.

طرق الباب ودخل بخطى ثقيلة، ألقى التحية على عائلته، عبس الوالد عند رؤيته لولده فضل؛ فقد كانت غصّة في قلب الوالد أن يكون ابنه قد تحرر مما رُبّي عليه من الدين، فلم يعد يراه مواظباً على الذهاب إلى الجامع كما السابق، أصبح يدرك أن ابنه لا يصلي إلا لتفادي وقوع مشاكل جديدة معه.

المهم، أنهوا طعام الغداء، واستغرب كلا الوالدين سبب تلك الإبتسامة التي لم تفارق وجه ولدهما البكر، فرغ كل منهم من غسل يديه وجلسوا أمام التلفاز، وقبل أن يهم والده بتغيير المحطة، قال فضل:

- أريد أن أسمعك شيئاً يا والدي!
- ماذا؟ (بصوت غلب عليه التأفف والقرف).
- لقد ألّفت قطعة موسيقية جديدة، وأريدك أن تسمعها لو كان هذا لا يضايقك.

في هذه الأثناء، تأفّف الوالد بشدة وهم برفض هذا الطلب، ولكن زوجته حالت دون حدوث هذا، وطلبت من ولدها إحضارها، فما كان من الوالد إلا أن جلس ليسمع، ولكن ما لبثت الموسيقى أن بدأت حتى قال والده:

- ما هذا يا حبيبي؟
- ماذا يا أبي؟ (بنبرة المندهش).
- لقد أجلت فصلاً كاملاً، لتتفرغ لهذا الهبل؟
- هذا ليس هبلاً يا والدي!
- هذا هبل، وأنت شخص وقح ولا تعرف الإحترام، اخلع اسطوانتك هذه واغرب عن وجهي فوراً!

لم يردف بشيء إلا الصمت البحت، خرج إلى الخلاء، وخرجت دموعه على هدير الصراخ الذي كاد أن يخنقه، أشعلت الولاعة الخضراء سجائره واحدة تلو الأخرى، لم يسترسل في البكاء، بكى خمس دقائق فقط، مسح دموعه ونظر بحقد دفين متجذر في الأعماق إلى العالم بأسره، تذكر كلام صاحبه أحمد «أن تجلس تندب حظك وتشكو الزمان، هذا لا يفيد شيئاً، الشيء الوحيد الذي عليك فعله الآن، هو أن تذهب وتشغل الأورج وتبدأ بغزل معزوفة جديدة».

أطفأ سيجارته وذهب من فوره إلى غرفته، بدأ بغزل معزوفة أخرى، لم يأبه لما قال والده، نسيه فوراً وألقاه خلف ظهره.

في كل مرة يجلس فيها إلى أورجه أو إلى قلمه، يصبح العالم كله خارج التغطية، لا يتواصل إلا مع ابتسامتها، فيخرج الشعر وتزهر

الأنغام، ينام البؤس لتشـرق الأحلام، فكّر كثيراً في هذا ولم ينسـه، «يا ترى، ما السرّ وراء كل هذا؟» سأل نفسه.

تخيل ابتسامتها منجماً ضخماً تعج به المجوهرات والكنوز، أو كحديقة أزهرت فيها كل أنواع الورود، وما عليه إلا أن يدخل ناظراً إلى هذا العالم القابع في وجه فتاة، يشم فيه عبق الشعر ويقطف منه أنغام الموسيقى، هو لا يقطفها، بل يسرقها خلسة من دون استئذان، فيصبح مديناً لها بكل نغمة سكنت في ثنايا الإيقاع، وكل حرف نظم في قصائده، «يا لها من معجزة حقاً!» قال في نفسه، «ولكن يا الله! لمـاذا لـم أنـل شـيئاً مـن حبها إلا كل ما هو خيـال؟ لماذا لم نصبح كمـا كنـت أتمنـى وتتمنى؟ هل هذه هي الحياة، أم أنا الوحيد القابع في مزابل الأوهام، لا أرى من السعد إلا طيفه الكذاب؟».

علّل ما حدث بإيجابية بحتة، وأقنع نفسه بأن لقاءه بها، ما كان إلا إخطاراً من الله ليكتشف بأنه قادر على تأليف الموسيقى وكتابة الشـعر، فقد كان يحلم بأن يصبح عازف بيانو عالمياً، والآن أصبح حلمـه أن ينقـل للعالـم موسـيقاه الخاصة، تلك التـي تُوْلد من رحم معاناته وحرمانه.

-3-

لم يكن معتاداً على قراءة الروايات أبداً، لكن الفراغ الكبير الذي كان ملك يديه، دفعه لتصفح تلك الرواية التي أسدى بها حسام إليه كاعتذار بسيط عما بدر منه، وأيضاً كعربون صداقة جميل، كانت هدية ذكيّة من حسام؛ فقد كانت رواية «الخيميائي» للكاتب البرازيلي الرائع «باولو كويلو».

قرأ الرواية بشراهة، قرأها وأعاد قراءتها مرة أخرى، لم تكن تلك الرواية روايةً، بل كانت سحراً خُطّ على ورق، لم يدرِ كيف بدأ بها وكيف أنهاها، لم يشعر بالوقت أبداً، فقد سافر مع بطلها «سنتياغو» في كل تفاصيل رحلاته، لقد تعلم أن على الإنسان أن لا يستسلم أبداً وأن يسعى لتحقيق أحلامه مهما كانت بنظر الآخرين بعيدة المنال.

ازدادت قريحته للقراءة، فقرأ كثيراً عن العالم الغربي، قرأ عن جامعات أوروبا وعن خمورها، وعن كل ما يمت للغرب بصلة، ركّز كثيراً على «بريطانيا» تلك الدولة التي يحلم أن تحتضنه مستقبلاً.

اطلع على حيوات كثير من الموسيقيين، لفت انتباهه كثيراً أن الموسيقار الكبير «ياني»، تعلم العزف على البيانو بمفرده، لكن الشيء الذي كان دفعةً أسطوريةً له في المضي بالعزف والتأليف، أنه قرأ أيضاً أن هذا الموسيقار العظيم لا يقرأ النوتة أيضاً، إذاً، فالتدريب

والتأليف، كفيلان جداً ليمضي قدماً ومن دون خوف؛ ليصبح موسيقياً ماهراً بل عالمياً.

انتهى الفصل الأول من السنة الرابعة، ومعه انتهت إجازته، واقترب الوقت من حافة الفصل الثاني، ومع بداية الدراسة من جديد، أصبح الوضع حرجاً ويجب عليه أن يدرس، لكن، ماذا يفعل بتلك الأحلام؟ هل يتركها تنام؟ إذا كانت قد لاحت بفكره مثل هذه الفكرة في بداية العطلة، فإن رواية الخيميائي قد ألغت أي خيار للإستسلام، إذاً، ما السبيل إلى تحقيق شيء منها؟ إذا كان عليه أن يتوقف قليلاً عن تأليف قطع موسيقية جديدة، وأن يتفرغ للدراسة كي لا يخذل أمه، فعلى الأقل، أن يسعى لإيجاد أي شيء يساعده في نشر ما ألّف، ألا يعدّ هذا بصيص أمل قد يصنع منه ولو بعد حين، نجماً أسطورياً في هذا العالم اللعين؟

بدأت رحلة الدراسة من جديد، وبدأت معها رحلة البحث عن طرف خيط قد يوصله لطرف خيط آخر يستطيع من خلاله أن يفعل أي شيء مع ما ألّف، ربما ومن يدري، فقد يصل لمبتغاه، وأيضاً لا قلق على الدراسة؛ فهو يدرس ويجد، ولا يؤثر البحث والسؤال مثلما التأليف والتسجيل والإبحار في غياهب العوالم القابعة في ابتسامة ميّ.

كثيرة هي المؤسسات التي ذهب إليها باحثاً عن طرف الخيط ذاك، كثيرون هم من استفسر منهم عن أي شيء يخص ذاك الموضوع، كثيرة هي الرسائل الإلكترونية التي أرسلها هنا وهناك محاولاً إيجاد أي بصيص أمل، لم يترك أي مغنٍ محلي إلا وعرض

عليه فكرة أن يلحن له، وإن أعجبه كان به.

لـم يجـد رداً مـن أي مؤسسـة، لـم يصـل أيُّ رد على أيٍّ من رسائله التي بعث بها هنا وهناك، إجابةُ كل المغنين وكل من سألهم وجهاً لوجه كانت فقط: «إن شاء الله».

كثيرة هي المناسـبات والحفلات التي تمنى لو كان بإمكانه أن يقدم عرضاً موسيقياً على أورجه فيها؛ يعرض فيه شيئاً من موسيقاه، إلا أن إجابات الكثيرين كانت:

- نأسـف كثيراً، فنحن نتمنى المسـاعدة، ولكن إذا اسـتطعت أن تعزف شيئاً شعبياً وطنياً، فهذا ممكن، أما موسيقاك وعلى الرغم من جمالها، ألا أنها لا تتناسب مع أجواء حفلنا هذا، نعتذر جداً.

إجابة من تبقى كانت:

نعتذر جداً، فالوقت ليس في صالحنا!

لقد أنهكه البحث اللامجدي، وأصبح اليأس يتسلل إلى عزيمته، لكـن، هـل يستسـلم بهـذه السـهولة؟ حياتـه أصبحت رتيبة؛ دراسـة وبحـث غيـر مجـدٍ، حتى لقاءاتـه مع صديقه أحمـد، أصبحت قليلة جداً؛ فانشغال كل منهما، حال دون فرص كثيرة للقاء.

أخيراً، حفلة سـتقام في رام الله يوم الخميس القادم، سـيحييها نجوم بارزون في وسـط الغناء العربي، وجد فيها أحمد خير مطرقة تكسـر روتيـن حياتـه هو وصديقه، لم يمانع فضـل في الذهاب ولم يتردد لحظة، بل إن أحمد قد تعجب من هذا الحماس غير المسبوق من صاحبه.

مضـت بضعـة أيـام وحـان موعـد الذهـاب، تكفل فضـل بدفع

تكاليف الدخول والمواصلات، ولا يزال أحمد لا يفهم شيئاً مما يحدث. حضرا الحفلة وكانت ليلة أكثر من رائعة لأحمد، أما فضل، فما كان متلهفاً لسماع الأغاني بقدر اللهفة التي كان ينتظر فيها نزول أي من المغنين عن خشبة المسرح، خرج الأول، فلم يتردد في ترك صاحبه قابعاً وحده في كرسيه ليهجم على مخدع المغنين، فيصده أحد الرجال قائلا: «لا يُسمح بالدخول؛ فهذا مخصص للمغنين وفرقهم فقط!»، لم يتردد فضل في مقارعته بحكمة، إلا أن محاولاته باءت كلها بالفشل؛ فقد كان الحارس بغلاً، ولا سبيل للتفاهم معه إطلاقاً.

لا يكاد هاتفه المحمول يكف عن الرنين، أحمد يغلي من القلق، وفضل يستمر في فصل المكالمة تلو المكالمة، حاول التسلل من الخلف، إلا أن أحدهم رآه فزجره بشدة، فما كان من فم فضل إلا أن بدأ ولا إرادياً، بقذف الشتائم الواحدة تلو الأخرى على هذا التصرف المخزي الذي رآه.

لم يكن هناك من سبيل إلى مقابلة أحدهم سوى التحدث إلى أحد المسؤولين، ذهب إليه بحجة أنه من أشد المعجبين بذلك المطرب، ويريد أن يأخذ صورة تذكارية معه، نعم، لقد كذب فضل؛ ليصدق مع حلمه.

سُمح له بالدخول بعد طول انتظار وتوسل كبيرين، دخل فلاقى نفس الرفض، أخرج الورقة التي سمح له بالدخول من خلالها، ألحقها بضحكة انتصار كان لها وقع الخزي على وجه ذلك الحارس البغل.

سـأل عن مكان غرفته فوجده بسـرعة، طرق الباب وإذا بذلك المغني يخرج مبتسماً محيياً صديقنا فضل.

- مرحباً.
- أهلاً أهلاً.
- أنا فضل من مدينة طولكرم.
- أهلاً بك وبكل أهل مدينة طولكرم الكرام.
- بـارك اللـه فيـك، أنـا جئـت وعنـدي طلـب، وهو أنـي أؤلف الموسـيقى، ولـم أجـد طريقاً لي في هـذا المجال بعد، حيث أن كل ما أؤلفه هو أسير قناتي على اليوتيوب، ولم أجد طرف خيط ربما من خلاله أبدأ بنشـر موسـيقاي؛ حتى أتمكن من إيصال ما أؤلف إلى قدر أكبر من المستمعين.
- جميل جداً ما تقول.
- ولهذا أنا طلبت مقابلتك، آملاً أن أتمكن من تلحين أغنية ربما أبدأ مشواري بعدها مع الموسيقى.

قبـل أن يهـم المطـرب بتلفـظ أي كلمة، أخـرج فضل من جيبه ورقة، كان قد دوّن فيها رقم هاتفه النقال وعنوان بريده الإلكتروني واسم قناته على اليوتيوب.

- في هذا الورقة تجد كل طرق الإتصال بي، وأتمنى أن يكون هناك اتصال قريب بيننا.

شكره المطرب واختصر كل جوابه في جملة «إن شاء الله».

عاد إلى مقعده حيث يجلس جانباً صاحبه، رأى أحمد صديقه الصغيـر آتيـاً والفرحـة تـكاد أن تقفـز مـن وجهه الذي كان يتوسـطه

ابتسـامة عريضة، هدأت كثيراً من سـورة غضبه؛ حيث كاد أن يفقد صوابه لتجاهل مكالماته الكثيرة التي انهالت على هاتف فضل النقال كزخ المطر.

-4-

بدأ التحضير لمشروع التخرج، وكان فضل يسعى جاهداً للعمل على مشروع تخرجه ليقدمه على أكمل وجه.

بصحبة زميله «جورج» في كلية الهندسة، بدءا العمل سوياً على مشروع تخرج كان عبارة عن تصميم هيكليّ لمسرح موسيقيّ، أراد فضل أن يعمل على هذا المشروع؛ ليبقى على تواصل مع أجواء الموسيقى من جهة، وأن يصبح على علم بشيء مما يخصّ بناء مسرح موسيقي من جهة ثانية؛ فهو أكيد من أنه سيقف يوماً على خشبة أحد المسارح العالمية الكبرى، يبث من خلالها ما حاكته مشاعره وأحاسيسه من موسيقى.

عملا ليلاً ونهاراً، بجد وإخلاص متفانيين، دراسات وأبحاث وحسابات ومعادلات، سجائر وفناجين قهوة ومشروبات طاقة، إرهاق وتعب وجد بالعمل، مشروع تخرج يريد أن ينجزه فضل على أكمل وجه، يريد أن يشعر ولو للحظة بالنصر؛ ليرى عيون أمه تغرورق بالدموع فرحاً لما أنجزه ولدها البكر.

الجامعة والمحاضرات، الموسيقى الكلاسيكية والسجائر والقداحة الخضراء، التحضير لمشروع التخرج، لقد صار يومه ضيقاً حقاً، لم يعد لديه أي وقت ليداعب مفاتيح أورجه، إن الشغل الشاغل لفضل وصديقه، هو فقط العمل على مشروع التخرج

وتشـريف أهلهما والحصول على الشـهادة، لكن، وهل لفضل، ذلك الحالـم بالعالميـة، أن ينقطـع انقطاعـاً تامـاً عن حلمـه وإيجاد طرف الخيط ذاك، الذي قد يجد من خلاله طريقاً في الموسـيقى بالتأكيد سـتدفعه للمضي قدماً والسـعي وراء تحقيق ذلك الحلم الكبير؟ لم يكن باسـتطاعته فعل أي شـيء سـوى أن ينتظر أي شـيء يصله من ذلـك المطـرب، قـد يرن هاتفـه النقال، قد تصله رسـالة على البريد الإلكتروني، قد قد قد.

كان التفاؤل والأمل حليفي فضل دائماً، فهو وبالرغم من انقضاء أشهرٍ على لقائه بذلك المغني، إلا أنه ما زال على يقين وشبه أكيد من أنه سيتلقى منه شيئاً سيبدأ من خلاله طريقه الموسيقي؛ فقد بدت علامـات الطيبـة جليّـة على وجه ذلك المطـرب، عدا عن أن صوته لا يصدح إلا بكل ما هو أخلاقي. سيرن هاتفه النقال يوماً، وسيُبهر المطرب بلحن سـيكون له الفضل في فتح طريق آخر لعمل جديد، إلى أن يصل إلى مبتغاه «العالمية».

مضت أيام التحضير لمشروع التخرج سريعة، تولّد أشهراً طال فيهـا الإنتظـار وشـاخ فيها الأمل بتلك المكالمة، اسـتأجر الصديقان سكناً لهما قرب الجامعة؛ فالوقت لم يعد يسمح بالذهاب من – إلى عنبتـا يوميـاً، وكذلـك حـال صديقه جورج الـذي كان يروح ويجيء من – إلى رام الله كل يوم.

أسبوع واحد يفصلهما عن تسليم مشروع التخرج، أصبح العمل يأخذ منحى جدياً بكل معنى الكلمة، عملٌ وعملٌ وعمل؛ فالجامعة ليس للأعذار مكان فيها، وإن لم يسلّم المشروع في الموعد المحدد،

فكل ما عملاه سيذهب مهب الريح.

إرهاق وتعب يتسلل من وجوه الشابين المرهقين من العمل، ولكن ما العمل؟ فلا وقت للراحة؛ فقد مضى الوقت، وغداً هو موعد التسليم ولا مناص من ذلك. شاي ومشروبات طاقة، سيجارة هنا ونفاضة سجائر ملأى بالسجائر ملقاة هناك، علبة قهوة فارغة في الزاوية، فناجين قهوة كثيرة، القداحة الخضراء كيتيمة تتوسط الطاولة؛ فقد حرص فضل أن لا تضيع منه أبداً، عدا عن أنه لا يتهاون في إشعال أيٍّ من سجائره إلا بواسطتها، استخدمها كثيراً ولسنوات، وهذا ما جعل علامات الإهتراء والتشقّق جلية عليها.

دعك من هذا الآن، ولنرَ ما حلّ بهما!

ظلا مستيقظين حتى ساعات الفجر الأولى، يعملان بجد، في الصباح، ذهبا إلى الجامعة وسلما المشروع، بعد يومين، حُدّد أنه في الأسبوع القادم سيكون موعد المناقشة.

مضى الأسبوع سريعاً، اشترى كل منهما بدلة رسمية جديدة، واستعدا جيداً؛ فغداً هو يوم المناقشة، حيث سيحضر الأهل والأصدقاء، وسيكون بالطبع يوماً من أجمل ما قد يجيء به العمر.

ظلّ فضل مستيقظاً من الليلة السابقة، لم تذق عيناه طعم النوم إطلاقاً، عزف على عوده الكثير من الموسيقى، تذكر المطرب الذي ما زال ينتظر أي شيء منه، أبحر في التفكير في ماضيه ومستقبل أحلامه، تذكر الأيام الخوالي بصحبة ابتسامة مي، أتعبه التفكير وثِقل الحنين لذلك الماضي وذلك المستقبل.

صدح صوت المؤذن لصلاة المغرب، في هذا الوقت، لم يعد في جعبته أي متسع للسهر؛ لقد استولى عليه النعاس وبات أسير أي ساعة يريح بها جسده الذي أضناه التعب.

- رجاءً يا جورج! أريد أن أنام الآن، لكي أتمكن غداً من الوقوف بثبات وشرح كل شيء على أكمل وجه، فغداً هو حصاد خمس سنوات بكاملها.
- لا تقلق يا صديقي، نم وخذ قسطاً كافياً من الراحة، وأنا سأوقظك في الوقت المناسب.

وضع عوده ومحفظته وهاتفه النقال وقداحته الخضراء وكل متاعه على الأريكة، استلقى كالقتيل على تخته ونام، نام وغاص في النوم وذهب في سبات عميق، أما جورج، فأشعل سيجارته الأولى لهذه الليلة؛ استعداداً لمراجعة كل ما يخصه؛ فقد أخذ قسطاً كافياً من الراحة والنوم قبل فضل بساعات.

الفصل السادس

-1-

رنّ هاتفه النقال، يُخرجه من جيبه، ينظر إلى شاشته الصغيرة، إنه رقم غريب ولا يحمل اسماً.

- مرحباً.
- أهلاً وسهلاً.
- هل عرفتني؟!
- إن الصوت مألوف ولكني لم أتذكر بعد!
- أنا الفنان «بسّام»، ألست فضل؟ من التقاني في حفلة رام الله قبل ما يقارب السنة؟
- نعم نعم إنه أنا، أهلاً وسهلاً بك أستاذي الفاضل، تفضل!
- لقد سمعت موسيقاك المحمّلة على اليوتيوب، وأعجبتني كثيراً، وأنا الآن أحضر لألبوم جديد، وعندي نص لأغنية لم تلحّن بعد.
- ابعث لي بنصها على البريد الإلكتروني، وإن شاء الله سيكون كل شيء على ما يرام.
- إن شاء الله، ولكن أرجو أن تلحنها في وقت قريب؛ لأن الوقت ليس في صالحي.
- إن شاء الله سيكون كل شيء على ما يرام.

حدث ما تمنى، والآن، قد فتحت له طريق في الموسيقى،

بالتأكيد ستفتح طرقاً أخرى ستوصله في نهاياتها إلى أفخم دور عرض الموسيقى في أوروبا.

لقد تخرج من الجامعة، ورأى دموع أمه تنهمر فرحاً بنجلها الذي أصبح مهندساً، لقد رأى الفرحة الغامرة في وجه أمه ووالده وأخته الصغيرة وهو يتسلم شهادة تثبت أنه مهندس، نعم، لقد أصبح مهندساً مدنياً، واستطاع أن يتخطى كل الحواجز والقواهر التي ألمت به.

تخرّجٌ من الجامعة، أعقبه اتصالٌ من المطرب الذي قابله قبل ما يقارب العام، نعم لقد طال انتظاره لهذا الإتصال لكنه قد تم، ولو بعد حين.

فكّر فضل واسترسل في التفكير كثيراً، فكر كيف أن الأمور سارت كما يريد وأكثر، فكّر في تخرج الجامعة بالرغم من كل ما عاناه من والده، وبالرغم من عدم رغبته في التخصص الذي درس، فكر في اتصال المطرب، الذي جاء بعد طول انتظار لازمه أمل وتفاؤل كبيران كاد الزمن أن يقتلهما.

نعم، إن الأمل والتفاؤل يصنعان المعجزات، ولا نملك إلا أن نتحلى بهما لكي نحيا حياة هنيئة، حتى ولو بدت الظروف قاسية والطرق مغلقة.

لقد فتح علبة الوارد في بريده الإلكتروني، إن رسالة المطرب قد وصلت، نعم، إن كلمات الأغنية قد صارت بين يديه، الشغل الشاغل له في هذه الأيام إذاً، ليس البحث عن وظيفة، إن كل تفكيره ينحصر في محاولة إبداع لحن جيّد وجميل؛ لكي يفتح له طريقاً

لعمل آخر، وهكذا حتى تثبت ألحانه جدارتها في أن تعزف في أفخم دور عرض الموسيقى في العالم.

علبة السجائر، القداحة الخضراء، فناجين القهوة الكثيرة، ابتسامتها في مخيلته، أصابعه على مفاتيح الأورج. هكذا بدت مراسم خلق لحن جديد، عمل مضنٍ، سيجارة تنتهي فتجيء الأخرى، فنجان قهوة لا يكاد يفرغ حتى يمتلئ، إحساس بكل نغمة، تحليقٌ في سماء الحب الضائع، لحنٌ شجي وجميل بدأت نغماته تنغزل نغمة تلو الأخرى، نغماتٌ سُرقت من بين ثنايا شفتي ميّ.

بعد مضي أسبوع واحد لا أكثر، أصبح اللحن جاهزاً، أصبحت نغماته في جعبة صديقنا فضل. انتشل هاتفه النقال وطلب رقم المطرب بسّام، ينتظر الرّد ويمعن النظر في دخان السيجارة، يأخذ رشفة أخرى من القهوة، يتصوّر حاله بعد سنين قليلة.

- مرحباً.
- تحياتي أستاذ بسام.
- أهلاً وسهلاً صديقي.
- لقد انتهيت من تلحين الأغنية، وإن شاء الله لم يتبق سوى أن أسجلها تسجيلاً مبدئياً، سأرفقه برسالة لك على البريد الإلكتروني، لتسمعه وتقيمه.
- شكراً جزيلاً لك صديقي، وشكراً أيضاً لإنجازه في هذا الوقت القصير.
- لا شكر على واجب، فأنا من يتوجب عليه الشكر والإمتنان لمنحي هذه الفرصة الرائعة.

- إلى اللقاء.
- إلى اللقاء.

انتهى من تسجيله في أقل من يوم؛ فخبرته السابقة حالت دون تكـرار الأخطـاء التـي كان يقـع بها في بدايات تعامله مع التسـجيل؛ مما وفر عليه الكثير من الوقت. سجلها ثم سجل صوته يغنيها، ثم أرسل بالتسجيل إلى بسّام.

لـم يكـن يتوقـع يوماً أن ينال لحنه كل هـذا الإعجاب، والذي بدوره جعله فخوراً بذاته إلى أبعد الحدود، متفائلاً مرحاً طيلة الوقت، بالرغم من كل أنواع القسوة والقهر والشتيمة التي كان والده يلقيها كمحاضـرة يوميـة يتوجـب عليه حضورها؛ فرؤيـة الوالد لابنه يعزف علـى أورجـه ليـل نهار، عازفاً عن البحث عن وظيفة يعمل بها، كان لها أثر كبير في نفسه دفَعه إلى تعنيفه كلما سنحت له الفرصة.

كان فضل يتعامل مع كل تلك القواهر بشـكل أقل من عادي، فلحنـه الـذي نـال كل هـذا الإعجاب من بسـام، كان قـادراً على أن يجعل منه شخصاً لا يكترث أبداً لما يقول والده، ولا يكلّف نفسه جوابـاً سـوى «لا أحـد يعمل أبداً؛ فالوظائـف معدومة هذه الأيام!»، لقد كانت فكرة عدم وجود وظائف، تثلج صدر صديقنا بدلاً من أن تضعه في دوامة الإكتئاب كما يحدث مع الكثيرين؛ فالتفرّغ للتلحين والموسيقى، كان كل ما يسيطر عليه.

سيتم تسجيل الأغنية في أحد أفضل الأستوديوهات في مصر، لم يصدق فضل أن لحناً له سيتم تسجيله بتقنية وجودة عاليتين، فلا شك أن هذا سيضفي على اللّحن قيمة جمالية أخرى، يزيد من بهائها

التوزيع وتنوّع الآلات الموسيقية.

نعـم، إن خيـوط حلمـه الكبير بدأت تنغزل حقاً، لقد بات الآن بوسـعه أن يقـدم ألحانـاً أخرى إذا لاقـى لحنُه الأول ترحيباً وإعجاباً من الناس، ولا شك أيضاً من المطربين.

شـهران وتم الإنتهاء من تسـجيل الأغنية، وهذا كان كافياً لكي تـذرف دمـوع فضـل مبللة وجهـه الصغير، لم يصدق أنّ لحنه قد تم إخراجـه بهـذا الجمال وتلك الروعة، لقد صار ألبوم المطرب بسـام فـي الأسـواق، ولاقـى كل ترحيـب مـن النـاس، ولا شـك أن لحن صديقنـا فضـل، كان الأجمـل في هذا الألبوم؛ فنغمات مسـروقة من ابتسـامة فتاة أحبها بكل صدق وإخلاص خالصين، لا بد أن تخرج لحناً شجياً لاقى من الناس كل ترحيب وإعجاب غير مسبوقين.

لقـد تسـلّم مبلغـاً جيداً من المـال، بالرغم من رفضه لأن يأخذ شاقلاً واحداً؛ فقد كانت فرصة التلحين بحد ذاتها أكبر مكافأة، لقد اتفـق معـه بسـام علـى تلحين أغـانٍ أخرى؛ فلحـن واحد من فضل، كان له الفضل في زيادة معجبي بسام وعدد مبيعات ألبومه الجديد.

لقـد اشـترى لأمـه خاتمـاً مـن الذهب، واشـترى لأخته فسـتاناً جميـلاً، ولأبيـه بدلـة جديدة، إلا أن كل هذه التصرفات الجميلة، لم تخمد نار غضب والده، بل زادت من تعنته وقسوته عليه، لم يتقبل والده الهدية، بل كانت تلك البدلة بداية لنوع آخر من المحاضرات، يهدّد فيها الوالد بطرد ابنه من المنزل إذا لم يتوقف عن هذا الكلام الفارغ على حد تعبيره.

كان فضل على طرف حافة الخروج من المنزل وتركه لوالده،

إلا أن دموع والدته وأخته الصغيرة لم تدعاه وشأنه، فقد ضغطت كل دمعة من عيونهما على فوهة فمه الصغير، لكي لا يتسرع في أيٍّ تصرف قد يكون كارثياً، فلم يكن له سوى أن التزم الصمت البحت وذهب لبيت صديقه أحمد؛ فهو خير مواسٍ له في مثل هذه الشدائد.

لقد استلم نصّين جديدين لأغنيتين من المطرب بسام، سجائر وقهوة وابتسامة ميّ، عزف وتحليق في سماء العشق الميّت، نعم إنها ألحان شجية وحزينة، تخرج كالدموع من بين مفاتيح أورجه الجميل، تخطّ أجمل ألحان الشجن، صادقة، تخرج من بين ثنايا الإبتسامة العذبة، لتبدع لحناً عذباً وبديعاً.

إنه منشغل بالموسيقى ليل نهار، وبغض النظر عن أنه وجد وظيفة أو لم يجد، ففكرة أنه لم يكلف نفسه حتى عناء البحث عن باب رزق، كانت تجعل والده يشتاط غيظاً من تصرفاته إلى حد لم يستطع كبته.

في أحد الأيام، حيث كان فضل منهمكاً في العمل على إحدى الأغنيتين، فتح والده باب غرفته، دخل وخلع سماعات الأذنين عن رأسه، صارخاً في نفس الوقت في وجه ولده أن يكفّ عن هذا الهراء الذي يشغل وقته به دائماً، وطلب منه أن يأتي لمساعدته بالمزرعة بدلاً من أن يظل أسير الموسيقى والبطالة والعالة الزائدة.

في هذا الوقت، لم يتبقّ أي متسع للصبر عند فضل، نظر إلى والده نظرة الحاقد، لم يتفوّه بأي كلمة، فقط غادر البيت من فوره إلى طولكرم، عند صاحبه أحمد، حيث كان يعمل في الأستوديو، أخبره بأنه قد قرر أن يترك منزل والده وأن يستقل بمفرده.

على الرغم من كل المحاولات التي قام بها أحمد لكي يعدل صاحبه عن قراره، إلا أنه أبى إلا أن يترك كل ما يذكره بوالده، أراد أن يستقل بمفرده، أن يتفرغ كل التفرّغ للموسيقى، أن يتفرد بأورجه وابتسامتها فقط، أن يلحّن ويعزف من دون أي منغصات تقض مضجعه.

لقد آلمه كثيراً فراق أمه وأخته بتول، ولكن ما العمل؟ فالوضع صار لا يطاق بالمعنى الحرفي والمجازي وكل أبعاد القرف مما يسمى والده.

لقد أصبح الآن حراً وبمفرده، لا والد ولا قواهر، لقد استطاع أن يستقل سكناً في أحد مساكن الطلاب التابعة لجامعة فلسطين التقنية «خضوري» في مدينة طولكرم.

نعم، لقد كانت صاعقة لأمه ولأخته أن يرحل فضل بهذه السرعة، لكنه أقنع أمه بوجهة نظره، ونظراً لما تراه الوالدة من والده من سوء تصرف مع ولدها الوحيد، عذرته وصدّقته، لكن بعد أن أخذت منه وعداً بأن يأتي لزيارتها هي وابنتها كلما سنحت له الفرصة، وبالوقت الذي يكون والده منشغلاً في المزرعة.

نقودُ بيعِ قطعة ذهبية أعطتها له أمه، كانت كفيلة بدعمه مالياً حتى وجد عملاً في أحد محال بيع الملابس.

استقل شاحنة صغيرة، وبالوقت الذي كان والده منشغلاً في المزرعة، ذهب إلى البيت ونقل كل متاعه وأغراضه، كانت عيون أمه وأخته الصغيرة تذرفان دمعاً بلا حساب لمنظر متاعه وهي تحمّل في الشاحنة، قبّل رأس أمه ووجنتي أخته وذهب، نعم، لقد ذهب،

ذهب إلى المكان الذي فيه سيبدع أجمل النغمات والألحان، إلى المكان الذي يخلو من شيء يُدعى «والده».

غرفة صغيرة، تخت لشخص واحد، خزانة صغيرة وكرسي وطاولة، رتب خزانته جيداً ووضع الأورج على الطاولة، زيّن جدرانها بصور موسيقيين شتى، عرب وأجانب، لقد أصبحت غرفةً جميلة، تخلو من أي منغصات.

يسدل الليل ستارته، ويحين وقت العشاء، فيبدأ وقت الموسيقى والقهوة والسجائر، لقد حان وقت العمل.

وضع السماعات على أذنيه، أغمض عينيه فتمكن من رؤية ابتسامتها بوضوح، أطلق العنان لأنامله لكي تنصهر بين مفاتيح أورجه، نَسَج جملاً موسيقية جميلة، حلّق في سماء النغم الشجي، مضت أيامٌ تجرّ أياماً حتى اكتمل لحن إحدى الأغنيتين.

سجّلها وغناها وأرسل بها إلى بسام، لاقت إعجابا شديداً، تلقى مبلغاً آخر من المال، استمر في العزف والتلحين والتحليق في عوالم تلك الإبتسامة المكتنزة بأعذب ألحان الشجن الخالص، بعد أسبوعين ونيّف، انتهى من تلحين الأخرى، وكسابقتها، تسجيل وإرسال فإعجاب ومبلغ من المال.

لقد صار له اسم كبير؛ فبعد صدور ألبوم المطرب بسام الأخير، صار يستقبل نصوص أغان من عدة مطربين؛ ليلحنها وبمبالغ مغرية من المال، لقد توقف عن العمل في المحل التجاري؛ ليتفرّغ تفرّغاً كاملاً لابتسامتها وألحانه.

-2-

كبر فضل، وصار له اسـم وشـهرة كانتا كفيتلتين لينتقل للسكن فـي مدينـة رام اللـه، حيـث قلـب الحدث فـي كل أمر فنـي، أصبح يعمل لصالح مؤسسات كثيرة، يلحن ويعزف ويدرّب، سافر إلى عدة دول غربية، تعرف على الكثير من الموسـيقيين، انخرط في الوسـط الموسيقي الغربي.

كانت شـغفه الموسـيقي الأسـطوري الهستيري، أكبر دافع لكي ينتـج موسـيقاه الخاصـة، تلك التي تحاكـي في نغماتها أحلامه وكبر مطمحـه ومبتغـاه، فقد ألف قطعاً موسـيقية غربية نالت إعجاب كثير من أصدقائه الموسيقيين الغرب.

هـو لا يقـرأ النوتـة، وكذلك ليس على علمٍ بعلم الهارموني أو التوافق الموسـيقي؛ لقد عمل وصديقه البريطاني «جون» على إنتاج العديـد مـن القطـع الموسـيقية، فضـل يقوم بنسـج نغماتهـا، وجون يكتبها ويوزعها موسيقياً، فتغدو قِطعاً موسيقية كاملة، لا ينقصها إلا الأوركيسترا لكي تبدعها لحناً مسموعاً.

تمكن وصديقه في غضون سنتين، من إنتاج عدة قطع موسيقية غايـة فـي الجمـال والروعـة، وبفكـرة مشـروعٍ من جـون، تمكّنا من تسجيلها على حسابهما الخاص، ليخرج أول ألبوم لهما بالشراكة.

هذا ما طال انتظاره، ألبوم موسـيقي بحت يحمل اسـم فضل،

سُجّل بأحد أفخم الأستوديوهات في بريطانيا، لاقى إعجاباً شديداً من الغرب، اكتسح السوق وحقق أرباحاً طائلة.

يدعو فضل صديقه أحمد لليلة هي ليلة الوداع التي سيغادر بعدها فلسطين، ليستقر به المقام في بريطانيا، يلحّن ويعزف وينقل للعالم موسيقاه الخاصة، نعم، لقد أصبحت دور العرض الفخمة على مقربة من الواقع.

زيارة لبيت والده، وتقبيل لرأس أمه ووجنتي أخته، يُوْدع فضل مع أمه مبلغاً كبيراً من المال وقطعتين من الذهب لها ولبتول، وقبل أن يعود والده من المزرعة، يستقل سيارته إلى رام الله.

يجهز أوراقه، ويحتسي آخر فنجان قهوة في فلسطين، نعم، لقد حان وقت رحلة البحث عن الذات خارج البلاد.

من رام الله إلى مطار الأردن، ومن مطار الأردن إلى مطار هيثرو، ومن مطار هيثرو إلى الفندق، رحلة استغرفت ما يقارب الأربعة أيام.

لقد أصبح الآن في بريطانيا، وعلى شباك غرفته بالفندق، يحتسي فنجان قهوته مع سيجارة ليغط بعدها في النوم.

في الصباح الباكر، أتى لزيارته صديقه جون، استقبله بكل حفاوة وترحاب وسلّم عليه بحرارة؛ فقد مضى على زيارة فضل الأولى لبريطانيا ما يقارب العام، حيث افتقد كثيراً صديقه الذي كان سنده الأول والأخير في إنتاج ألبومه الموسيقي الأول، خرجا في نزهة في لندن، ذهبا فيها لزيارة «Liberty Hall»، حيث تُعرض في هذا المبنى بصحبة الأوركسترا الرائعة، العديدُ من القطع الموسيقية، الغربية منها والعالمية.

بمساعدة كبيرة من صديقه جون، تسلم فضل وظيفته الجديدة، كعـازف محتـرف فـي إحـدى الفرق الموسـيقية الضخمـة في لندن، ليؤسّـس فيمـا بعـد فرقته الخاصة التي تعزف ألحاناً غربية وشـرقية، أقامت العديد من العروض هنا وهناك.

كان جـوّ الحفـلات التـي يقيمها الإنجليز رائعـاً للغاية؛ الجمعُ الغفير من الحاضرين يتفاعل تفاعلاً كاملاً مع كل نغمة تعزفها الفرقة الموسيقية، أجواء فرح وأعياد، نقود كثيرة، احترام وتقدير، وكل يوم علاقات جديدة مع موسـيقيين، لقد دخل فضل في تيار الموسـيقى الغربية وبشدة.

البيانـو، وذاك السـحر المفقود لعقد مـن الزمان، البيانو والهالة المقدسة التي تحوطه، أصبح الآن الوقت المناسب لكي يتفرغ فضل للتـدرّب علـى عـزف البيانو بمهارة فائقة، وأيضاً التدرب على عزف الهارموني وبإتقان شديد؛ فنيّته لإنتاج موسيقى كالسيمفونيات مثلاً، تتطلب قدراً كبيراً من المهارة في عزف البيانو والهارموني، ولا يعد تعلم النوتة حاجزاً؛ فصديقه جون يكتبها له ويتولى توزيعها موسيقياً، وليس على فضل سوى نسج النغمات، ومن ثم تعلم عزف الهارموني لكل قطعة موسيقية ينتجها.

لقد ابتاع واحداً، وصار البيانو الآن في منزله. في أوقات فراغه الكثيرة، تفرغ فضل للعزف على البيانو، توجيه بسيط من صديقه جون مع بعض الإرشـادات والقواعد، أصبح لا ينقصه إلا التدريب فقط، سـهِر الليالي واسـتمع لكم هائل من الموسـيقى الكلاسـيكية، تعرف علـى الكثيـر والكثيـر منهـا، كان يعزف على البيانـو ما يقارب ثماني

ساعات يومياً، كان يعزف بشراهة كبيرة، لا والد ولا قواهر تحيطه، فعلبة السجائر والقداحة الخضراء والبيانو، كانوا عائلته الجميلة جداً في غربته عن عائلته في فلسطين.

أنتج ألبوماً موسيقياً جديداً، موسيقى غربية وشرقية من تأليفه، ألبوم يكتسح الأسواق ثانية، يدر عليه أموالاً طائلة، يكتسب شهرة كبيرة، فيصير فضل علماً موسيقياً من موسيقيي الغرب والشرق، يتسابق عليه المغنون من شتى الأقطار لكسب لحن من ألحانه العذبة.

علاقات شتى، شهرة كبيرة، أموال طائلة، تدريب على البيانو ليل نهار، تأليف موسيقى تحضيراً لألبوم موسيقي آخر. هذا ما كان عليه حال صديقنا فضل، لكن، متى سينتج أول عمل موسيقي ضخم؟ من يدري؟ فربما تعزفه إحدى الأوركيسترات الغربية، فتشرق شمس أحلامه.

نعم، لقد آن أوان المشروع الأضخم، تأليف سيمفونية، الفكرة بحد ذاتها أهذته، ووضعته في أجواء من السحر الخالص، أجواء حلقت فيها ابتسامة مي، وأشرق وجهها فيها كبدر كامل النمو.

بدأ العمل على المشروع الضخم، سهرٌ وإعياء واستماع لسيمفونيات كثر، تحليق في فضاءات الحب الميت، هذيان بابتسامة هي الأكثر سحراً على الإطلاق، عمل وكدٌ وعزف وتأليف، ليالٍ طوالٍ وسجائر وقهوة والقداحة الخضراء.

كانت كل جهوده المكثفة المضنية تعمل على خلق لحن يحاكي معنى كلمة «حلم»، فكانت سيمفونيته الناشئة تنمو على أساس تصوير هذا المعنى الجميل الذي سعى طيلة عمره لتحقيقه،

وحققه في النهاية رغماً عن أنف والده وأنوف كل من حاولوا صده، أو التقليل من عزيمته وعدم منحه الفرصة ليدلي بدلوه.

بعد عام، اكتملت موسيقاه التي عمل بها بكل جد وإخلاص متناهيين، سنة كاملة وهو يحاول أن يخلق من مشواره وتجربته لحناً موسيقياً جميلاً، فكانت سيمفونيتة «A Musical Dream» هي أولى سيمفونياته التي طمح طيلة عمره لتأليفها.

تسلّم جون التسجيل الصوتي للموسيقى، وعمل هو الآخر عملاً مضنياً في توزيعها ومحاولة إخراجها بأبهى صورة.

إذاً، عام ونصف العام، هي المدة التي انقضت لإتمام هذه السيمفونية ما بين تأليف وتوزيع. بعد كل هذا العمل الدؤوب والجهد الكبير، لم يتبق شيء سوى عرضها على إحدى المؤسسات الموسيقية الضخمة، فربما يتحقق حلمه أخيراً، ويكتمل بسماعه لنغمات سيمفونيته تحلق في فضاء إحدى قاعات العرض الموسيقي الكبيرة في لندن.

بسهولة بالغة لم يتوقعها أي من فضل أو جون، لاقت السيمفونية القبول والترحاب من كبرى دور العرض الموسيقي في لندن، تذكر فضل في هذا الوقت، كيف أن أستاذه محسن كان كاذباً في روايته عن أن الغرب رفضوه وموسيقاه؛ لأنه لم يكن من أصول إنجليزية كما قال.

بعد بضعة أشهر، سيقام عرض موسيقي كبير في لندن، وبالطبع، سيمفونية فضل سيكون لها نصيب كبير من هذا العرض الموسيقي الضخم.

مضت تلك الأشهر تجر نفسها ثانية بثانية؛ ففضل كان متشوقاً أشد التشويق لسماع نغمات سيمفونيته تحلق في سماء ذلك العرض. مضت الأشهر وجاءت لحظة الصفر، استعدّ الصديقان للذهاب لحضور العرض الموسيقي الكبير، دخلا، وشعر فضل في تلك اللحظة بأنه يدخل إلى بوابة عمالقة الموسيقى في العالم؛ شعر بأنه قد أصبح واحداً منهم؛ فبعد قليل، ستغرّد تلك الآلات الموسيقية الكثيرة، بنغمات سيمفونيته التي حاكت كل ما كان يختلج صدره من طموحات وأحلام، هي بالكاد أصبحت في متناول اليد الآن.

ما أجمل هذه اللحظات؛ كثير هو الحضور، ساحرة هي الأجواء، استعدادات أخيرة لبدء العرض الساحر، هدوء يخيّم على صالة العرض، قلب فضل يكاد أن يقفز فرحاً ونشوةً بتلك اللحظات التي طال انتظارها، ولكنها جاءت، ولو بعد حين.

نظر فضل إلى وجه صاحبه جون، وما أن التفت إلى الأوركسترا حتى بدأت نغمات تلك السيمفونية تتطاير في سماء القاعة الضخمة، لتطير به إلى سماء مرصّعة بالنشوة والإنتصار، لقد بدأ العزف وبدأ الهذيان الحقيقي، كل نغمة منها كانت تأخذه إلى عالم من الإنتصار، عالم من النشوة والسحر الخالصين، عالم هو ليس كأي عالَم، إنه عالم فضل الحالم بيوم أفضل وعصر ذهبي جديد.

بكى كثيراً؛ فوقْع تلك النغمات الساحر على نفسه، لم يكن منه إلا أن دفع بدموعه لكي تنهمر وبغزارة، دخّن كثيراً، واحتسى بعضاً من كؤوس المشروب السكوتلاندي الرائع، لقد طار إلى ما لم يدرِ، طار وحلّق في السماء وعاش اللحظة بكل سحرها ونشوتها، فهل

هناك شيء في هذا الكون، يعادل فرحته بسماعه لتلك النغمات التي احتلت واستعمرت كل خلية من خلايا جسده الصغير؟ بالطبع لا!

صفّق الجميع بحرارة لهذا العرض الموسيقي الرائع، تذكر فضل لحظة انتهائه من مناقشة مشروع تخرجه، تذكّر التصفيق بحرارة، تذكر نشوة الإنتصار الصغير ذاك، وها هو الإنتصار الكبير قد أصبح على مرأى عينيه العسليتين، لقد شعر بنشوة السعادة الحقيقة؛ تلك التي لا تولَد إلا من رحم حزن عميق.

انتهى العرض، ولا يزال السحر يرافقه كالطيف، احتفل وصديقه جون بتلك الليلة غير المسبوقة أبداً، عاد إلى منزله يردّد نغمات سيمفونيته بسعادة غامرة.

لكن! ما لسخرية القدر لا تفارقه لحظة؟ ما للبؤس يأبى إلا أن يظلّ أوفى أصدقائه وأكرمهم؟

وصل باب غرفته نشواناً، فوجد طرداً ينتظره، فتح الطرد ويا ليته ما فتحه، «خبر وفاة أمه سلوى» هذا ما جاء به الطرد، لقد ماتت، وماتت معها كل فرحة هذه الليلة، ما لبث أن قرأ الخبر حتى صرخ ودوّى صراخه في كل أرجاء المنطقة، لقد ملأ صراخه كل زاوية في ذاك الحي حزناً وبؤساً، صرخ وبكى وانهار.

-3-

- أين أنا؟
- أنت في المستشفى، لقد أغمي عليك وجيء بك إلى هنا.

اغرورقت عيناه، صرخ وبكى على أمه سلوى، حقنةُ منوم أدخلته في غيبوبة أخرى. يومان ثم خرج من المستشفى، من فوره عاد إلى فلسطين، إلى قبر أمه، إلى مثواها الأخير في التراب، جلس عند قبرها، بكى بحرقة بالغة، اعتذر لها عما اقترفته يداه، قبّل تراب القبر وتوّجه بباقة من الزهور، اعتذر كثيراً، ندم في الوقت الذي لا ينفع فيه الندم، شتم والده عند قبرها، أخذ يشرح باكياً كطفل صغير كيف أن والده هو من أجبره على كل هذا وذاك؛ فهو لم يفكر لحظة في الإبتعاد عن والدته والعائلة. ساعتان ونصف الساعة كانت مدة زيارة القبر.

عاد إلى البيت، والنار تشتعل في نفسه غيظاً ممن يدعى والده، لقد اعتبره المسبب الأول والأخير في انتهاء أجل أمه؛ فمعاملته السيئة لكليهما، أسفرت عن تلك الفاجعة، ولو بعد حين، ولكن ماذا بوسعه أن يفعل؟ هل يقتله؟ نعم، لقد فكّر في هذا جدياً، لكن ما مصير أخته بتول، وهي على أبواب الثانوية العامة؟ هل يسبب لها فاجعة أخرى قد تفقدها صوابها؟ وماذا سيحل بها بعد والدها؟ فليس من اليسير أن يأخذها إلى بلاد الإنجليز لتعيش معه هناك،

ومن الصعب جداً أن يبقى هو في فلسطين؛ فقد أزهر حلمه أخيراً، ومن المستحيل أن يتركه يموت بعد كل هذا الريّ. إذاً، وضْع أخته بتول أنقذ حياة والدها.

بعـد يوميـن فقط، عـاد إلى بريطانيا، صار المشـروب والدخان خير جليسين له في ذلك المكان، أصبح يحتسي المشروب في كل يوم وفي كل لحظة تلوح بمخيلته ابتسامة أمه ممزوجة بابتسامة ميّ.

تعرف على إحدى عازفات الكمان، كانت من أصول فرنسـية، جميلـة جـداً، فارعـة الطول، شـقراء بعينين زرقاوين، أسـبوع واحد، وصارا صديقين حميمين.

في إحدى الأمسيات وبعد حضور عرض موسيقي كبير، ذهب وإياها لقضاء ليلة في منزله، احتسـيا فيها كثيراً من مشـروب بوردو الفرنسـي اللذيذ، بكى لها وشـكى، شـكى مرّ هذا الزمان، وكيف أن أيـاً مـن أفراحـه لـم يكتب لهـا الكمال أبداً، حدثها عـن حبّه الميت وعن أمه الميتة.

كان يحتسـي الكثيـر مـن المشـروب، ينظر إليهـا ويتذكر والده وتدينـه، أراد أن يفعـل أي شـيء عكس مـا يريد أبوه، أراد أن يكون عكس دينه وأبيه؛ قبّلها، وتغزل بها كثيراً، كان يضحك بهذيان كبير، يبكي ويضحك، يتغزل بها ويسبّ والده، كان يشرب ثم يضحك ثم يبكي ثم يسـرح في تفكير عميق في واقعه، يتذكر حاله وما حلّ به من هموم وأوجاع، يتذكر ما خسره دفاعاً عن أحلامه وأمنياته، تذكر كل ما عانته أمه وما كان مصيرها، تفكّر في غربته وضيعانه.

رشـفةٌ أخـرى من المشـروب، واسـتعداد وتأهب كبيـران، لقد

بدأت المعركة، وحمي وطيسها، بعد وقت قليل، تقهقر الجيشان، ورفعا الراية البيضاء، كانت ليلة مميزة جداً؛ أفرغ فيها فضل بعضاً من حقده، شيئاً مما يملأ صدرَه غِلّا، لقد شعر ببعض الراحة، شعر بأنه قد تحرر كلياً من الدين الذي يمثله والده، أصبح المشروب والنساء والموسيقى والدخان والقداحة الخضراء، كل ما يعنيه من هذا العالم.

خرج من أزمته النفسية هنيهة هنيهة، شكّلت مآسيه الكثيرة تلك، نواة سيمفونية أخرى؛ لقد تمحورت بداخله آفاقٌ جديدة أراد أن تصورها موسيقاه، تلك المآسي شكلت نغمات سيمفونيته الجديدة «A Hollow Hurt Heart»، أخذت وقتاً أقلّ من سابقتها، عمل وصديقه جون عملاً مضنياً لتخرج سيمفونية جميلة شجيّة.

ينتج ألبوماته الموسيقية الخاصة ويؤلف السيمفونيات بمساعدة جون، كانت حياته حافلة بالموسيقى، بالشهرة، بالمشروب، بالنساء، بالأموال، لقد كبر فضل، وبدأ الشيب يغزو شعره البنيّ.

في أحد الأيام، حيث كان في زيارة لأحد المتاجر الكبرى التي تختص ببيع الآلات الموسيقية، كالكذبة التقى بها ثانية، من هي؟ إنها ميّ! تقف بكامل أنوثتها تتفحص أحد الجيتارات، شعر بدوران كبير، أحس بأن الزمان والمكان قد توقفا مرة أخرى؛ ليتأمل ذلك المشهد بكل تفاصيله، من دون أي تأثير خارجي يخدش قدسية هذه اللحظة، إن الوقت والزمان والعالم بأسره قد توقفوا كلياً؛ لينفرد صديقنا في إحياء كل ما قد مات.

في إحدى المقاهي قرب برج الساعة، احتسيا قهوتهما سوياً،

تحدثا عن كل ما قد فات، روى كل منهما حكايته للآخر، بكيَا، حدّقا في عيني كلّ منهما الآخر، نظر فضل في عيني محبوبته، لمح دموعهما فقال:

- أتذكرين آخر لقاء كان بيننا؟
- وهل أقدر على نسيانه!
- في ذلك اليوم، قبل خمسة عشر عاماً، بكينا وافترقنا، بكيتِ أنتِ، فكتبت أنا:

ودمعك سال سيدتي كسيلِ السحر في لغتي
لأكتب في عيونك شعـ ـر حُبّ صار أغنيتي
أخططه كآياتٍ على جدران مكتبتي
أخلّد فيه حباً ما ت في دنيا مخيّلتي

تنهدت واغرورقت عيناهما بالدموع وأردف:

- لقد كنت غبياً حقاً عندما اعتقدت لوهلة أن هذا الحبّ قد مات، والأغبى مني هو صديقي أحمد، الذي حاول «عبثاً ومن دون جدوى» أن يقنعني بأني قد دفنت عمري وأن الشمس لن تشرق.

تحدثا طيلة النهار، حدّثها عن نجاحاته وإنجازاته، حدثته عن تفوقها ومتابعة دراستها حتى أصبحت تعمل أستاذة للموسيقى في جامعة «كينجستون»، ألقى لها قصائده التي كتبها لأجلها وحفظها عن ظهر قلب، رأت قداحته فتيقّنت من وفائه وإخلاصه، لقد كان حقاً يوماً مميزاً استعادا فيه كل اللحظات الجميلة.

لقد أثبت الواقع خطأ نظرية أحمد؛ فها هو الحب قد عاد وها هي الشمس قد أشرقت؛ لتغزل لميّ وفضل أجمل مستقبل لحبيبين طال انتظارهما لهذا اللقاء، لكنه جاء، ولو بعد حين.

قبل أن يفكر بالزواج والإستقرار وتأسيس عائلة، فكّر بعد كل هذا المشوار الطويل والنجاح المبهر ولقائه بمحبوبته، أن يقص للعالم حكايته، أن يكتب روايته، أن يروي للعالم كل تجاربه وكل ما أوصله لذاك النجاح وتلك السعادة، «الحلم» الذي حلِم به طيلة عمره وحققه رغماً عن أنف كل من وقف في طريقه وحاول صدّه، رغماً عن أنف والده الجسور. رغم تركه وتخليه عن كل ما يمتّ بصلة لدينه، رغم عاصفة الواقع وزوابع الأيام، إلا أنه نال مبتغاه، إذاً، فالمشروع القادم هو كتابة رواية.

بدأ العمل على مشروعه الجديد، انكبّ على دراسة الأدب؛ لكي تخرج روايته بأبهى صورة لها. قرأ الكثير والكثير، أعاد قراءة رواية الخيميائي مرة ثالثة، هذا الحكيم الذي أرشد سنتياغو حتى وجد كنزه، استذكر من خلال تلك الرواية كيف أن لا شيء يقف أمام حلم الإنسان وطموحه، إذا ما سعى لتحقيقه وعمل من دون يأس، وكيف أن العالم بأسره يتضافر من أجل إخراج الحلم من رحم الخيال إلى حيّز الواقع، استذكر نجاحه المبهر وحلمه الذي هو الآن في جيبه.

ليالٍ طوالٍ قضاها بين الأوراق والدخان وزجاجات المشروب، ولا ننسى القداحة الخضراء، كان «ريمسكي كورساكوف» بنغمات سيمفونيته «شهرزاد» خير رفيق له في رحلته الكتابية، كتب كلّ ما

يجـول بخاطـره، أفـرغ كل ما يريد في تلك الرواية، أدلى بدلوه على الملأ، شرح كيف أن هذا العالم ليس ديناً وليس أخلاقا، فما أوصله لما هو عليه الآن، ليس له أي علاقة بذلك الذي يدعى الدين، نعم، ليس للدين مكان في ما حصل، «العزيمة والإرادة تصنع المعجزات» هذا ما وضعه نصب عينيه أثناء الكتابة.

انتهت المسودة الأولى من الرواية، بضعُ أسابيع وتصبح جاهزة، لم يقلق بشأن النشر أبداً؛ فأمواله الطائلة تصنع المعجزات.

«الخاتمـة» هـي آخـر كلمـة خطّها قبـل أن يهم باحتسـاء كأس مشـروب آخـر، لكـن الأخيـر كان نخـب الإنتهـاء من الكتابـة، فبعد ذلـك، سـيرتب للذهـاب إلى بيروت؛ لطباعة ونشـر الرواية؛ ليوصل إلى العالم كله، كلّ ما يجول بخاطره.

فـي تلـك الليلة، ذهب إلـى بيت صديقه المقرب جداً «جون»؛ ليخبـره بـأن الروايـة قد انتهت ولم يتبق إلا النشـر. دخل بيته، وكان جون مشـغولاً جداً في تلك الليلة بتوزيع إحدى القطع الموسـيقية، وكان بادياً عليه التعب والإنهماك بالعمل.

جلسـا يحتسـيان كأسـين مـن المشـروب، كانت الفرحـة تغمر صديقنـا فضـل، تحدثـا قليلاً، استشـار فضـل صديقه بشـأن العنوان «مذكـرات غـارق فـي الأحـلام»؛ فلـم يكن يـرى فضلُ فيـه العنوان الأنسب؛ لأن الرواية باختصار، ليست مذكرات «غارق في الأحلام»؛ فها هو قد حقق كل أحلامه وأكثر.

التفت إلى صديقه وسـأل: «كيف ترى عنوانها؟ أليسـت لديك فكرة أخرى لعنوان أفضل؟» كان جون منهمكاً جداً في التفكير في

الموسيقى التي يعمل عليها، فأجاب صديقه بطريقة اللامبالي: سمّها كما تشاء يا رجل! من أين لي بفكرة لعنوان رواية؟!

نظر إليه فضل بشيء من الغموض وأردف:

- أتدري؟! إنها فكرة سديدة يا رجل، «كما تشاء!»، يا سلام! هذا هو العنوان الأنسب للرواية، شكراً لك حقاً، والآن سأتركك تنهي عملك ودعني أذهب إلى بيتي.

ذهب فضل إلى بيته والفرحة تغمره، ولكن قبل أن أنسى، دعني أخبرك بأن أفراحه، قد أقسمت يميناً عظيماً بالله أن لا تكتمل أبداً؛ أنظر ماذا حدث!

-4-

جلس إلى روايته يتفحصها، تناول القداحة الخضراء وهمّ لإشعال سيجارة، إلا أن علبة السجائر كانت فارغة، ويجب عليه الذهاب لشراء أخرى، تناول مفاتيح سيارته ونزل، وصل إلى جانب سيارته وضغط على الزر المخصص لفك قفلها، وإذا بذلك الإنفجار، صوتٌ مزّق أذنيه تمزيقاً، انتشله كالغريق من تلك العوالم التي كان يُبحر بها.

- ما هذا الصوت يا جورج؟
- آسف جداً، فقد تناولت قداحتك لإشعال سيجارة، لكنها سقطت من يدي وانفجرت، أنا أعتذر جداً!

تساءل فضل في قرارة نفسه: «ما هذا يا إلهي؟! ما هذا الذي يحدث بحق السماء؟! لقد كان حلماً؟!»

أفاق وذهب لغسل وجهه الذي كان العرق يتصبب منه تصبّباً، تناول منشفة ووقف قبالة المرآة، نشّف وجهه ورمق نفسه بنظرة الحاقد، نظرة اختلطت فيها كل مشاعر الأسى والحزن والإنهزام، حدّق في عيني وجهه وتساءل: «ما هذا الذي حدث؟!»

تذكّر أن أمه لم تمت، فاغرورقت عيناه فرحاً، تذكر أن حلمه لم يقترب من حافة الواقع بشيء، فنزف قلبه دماً، تذكر أنه لم يلتق ثانية بميّ، تذكر حياته التي كانت حلماً طويلاً وانتهى.

التفت ينظر إلى صديقه جورج، كانت الدموع تنهال على خديه بلا حساب، لقد ارتاب جورج لمنظر صديقه المرتاب، وحاله الذي يرثى له.

• ما بكَ يا فضل؟ ما الذي حلّ بك فجأة؟ أرجو إن كنت قد تذكرت شيئاً أزعجك، أن تنساه ولو لساعات؛ حتى نناقش مشروع تخرجنا على أحسن حال ونشرف أهلنا!

لم يردف فضل بأي شيء سوى تلك النظرة التي رمق بها صاحبه بأن «اصمت»، غسل رأسه، وببؤس قاتل حدّق في وجهه البائس واستعاذ بالله من الشيطان الرّجيم، تذكّر فوراً روايته وحديثه عن الدين، تذكّر ذلك وتفكّر:

«والدي يصلي، ويصوم ويزكي، وقرّر أن يذهب للحج في السنة القادمة، وفي نفس الوقت، ليس لتصرفاته ولا لمعاملته لي وأمي أية علاقة بالدين! الأستاذ محسن، كان طموحاً ومرحاً وساعدني، وعند إخفاقه وطرده من بريطانيا، تحوّل إلى إنسان حاقد ليس له أيّة علاقة بالإنسانية أو الأخلاق، وهذا ليس له أية علاقة بالدين! المغنون وغيرهم ممن يدعون أنهم ذوو أخلاق ويتبجحون بها في أغانيهم، كذبوا عليّ جميعهم ولم يعطوني أية فرصة لأدلي بدلوي، وهذا ليس له أيّة علاقة لا بالأخلاق ولا بالدين!».

«إذاً، ليس الخرابُ في الدين ولا في الأخلاق، إن الخرابَ يكمن في من يظنون أنفسهم أهل الدين وأهل الأخلاق ويتظاهرون به وبها، وليس لتصرفاتهم أيّة علاقة لا بدين ولا بأخلاق على الإطلاق!». قال في قرارة نفسه ناظراً إلى وجهه في المرآة يحدّق فيه يائساً متسائلاً.

كل من قابلهم وعايشـهم، أخلاقُهم هي من كانت السـبب في عـدم تحقيقـه لحلمـه ولا حتـى إيجـاد طـرف الخيـط ذاك، وهذا ما قـاد عقلـه إلـى نتيجة مفادها: «إن أحـلام الفرد، تتوقف على أخلاق المجتمع»، ومن البديهي أن النسر لا يستطيع العيش ولا التحليق في حظيرة تعجُّ بها قطعانٌ من البقر. أليس كذلك؟!

«لكن، وهل لهذا كله أن يقلل من عزيمتي ويفنيها؟» سأل نفسه.

«بالطبع لا!» أجاب.

وإذا سألته عن السبب سيقول: «لأن الحلم بذرة، نحن نزرعها في أرض الصبر والإنتظار، ونسقيها بماء الجهد والتعب، حتى تشرق شمس الإنتصار. نجعل من أخلاقنا وصدقنا مع ذاتنا حاجزاً وسياجاً نصدّ بها نيران سوء أخلاق غيرنا؛ لكي لا تحترق جهودنا وتنطفىء، وحتـى لـو لـم يـأتِ من ينظر إلـى أزهار جهودنا، فيكفينـا فخراً أنها نبتـت بداخلنـا، لتجعـل منا حقـول أمل وتفاؤل، ندفن فيها مآسـينا؛ لكـي نحيـا بإيمـانٍ: بأن الحلم لو ما جاء في يوم، ففي أنفاسـنا ريح من الأحلام، تدفعنا فتحيينا».

يا إلهي كم أن هذا الشـاب نارٌ وقودها الأمل والتفاؤل؛ فعلى الرغـم مـن الحلـم المميـت، إلا أنـه لم ينسَ حلمه الموسـيقي، ولا أعتقد أن حالك سيدي القاريء، أسوأ من حال صديقنا فضل؛ فحاله يصعب على الكافر.

لنترك هذا جانباً الآن! ولننهِ الرواية بسلام!

قـرّر أنـه لـن يستسـلم لوالـده ولا لغيـره ممـن سـوء الأخلاق

شعارُهم، لن يكون لهم أي تأثير على حياته بعد الآن؛ فقاع الثقة بالنفس، أن نجعل من سوء تصرفات أحدهم أو حتى جلّهم، حبالاً تجرّنا من ممالك حالنا إلى مزابل حالهم، فنرمي مبادئنا ونصبح مثلهم، وقمة الإنهزامية أن تسوَد نظرتُنا لشيء ما بسبب شخص ما أو حتى أمة بكاملها، ولا تنسَ أن الذّهب والماس وكل المجوهرات، تبقى نفيسة، حتى لو تكتّلت وتكدّست عليها جبال ذرات التراب والغبار، فالصواب إذاً، أن نبصر الأشياء بعيننا لا بأعين غيرنا، وإن كان غير هذا، تكون «السذاجة» هي الصفة الأبلغ لتصوير حالنا بموضوعية.

إذاً، سيكون فضل ملك نفسه بعد الآن، لن يسمح لأحد على الإطلاق أن يشوّه أو حتى يشوّش نظرته لأي شيء مهما كان، «سيقرّر ما يشاء كما يشاء».

هدأ هذا من روعه كثيراً، فابتسم لصديقه ابتسامة اعتذار عمّا رمقه به قبل قليل، فتح الصنبور استعداداً للوضوء، بدأ وضوئه ولكنه قبل أن يُنهيه، اقترب من المرآة مرة أخرى وحدّق في عينيه أكثر، استحضر واقع مجتمعه وتفكّر: «إن الكذب والنصب والنفاق ينخر في عظامنا، ونريد أن نكون كل شيء؟ نريد أن نكون خير أمة أخرجت للناس؟!»، ابتسم فضل بسخرية وقال بصوت مسموع جداً: «يا لها من نكتة حقاً!».

رجع قليلاً إلى الوراء ومسح وجهه مرة أخرى من العرق الذي تصبب من ثناياه الصغيرة وتفكّر: «صلاتنا وزكاتنا، صيامنا وحجنا إذاً، لن تغني عنا عند الله شيئاً ما دمنا بلا أخلاق، بلا قواعد تحركنا

سـوى النفـاق»، تذكّـر أن للعـرب تاريـخ حافل بكل مـا هو أخلاقي وحضـاري، تفكّـر: «إذا كان الحاضـرُ يعكـس المسـتقبل، أليـس من المنطقي إذاً، أنّ الماضي يعكس الحاضر؟».

شعر بأنه قد بالغ قليلاً، فقرر التوقف عن التفكير وإتمام وضوئه والإستعداد لصلاة الفجر، اختطفه منظر عوده على الأريكة وعاد به إلى أفكاره مجدداً، نظَر إليه بقدسية بحتة؛ فمن رحم هذا العود وُلد ذلـك الحلـم، ومـن كلمة الحلم هذه تذكّر سـحر الرواية تلك، تذكر ذلـك وتفكّـر: «لـو لم يلتزم سـنتياغو بتعاليم الخيميائي وإرشـاداته، لما وصل إلى مراده ووجد كنزه!» تسـاءل: «لماذا لا نُصلح أنفسـنا نحـن أيضـاً بمغـزى ديننا؟ لماذا كتبنا على أنفسـنا هذا القدَر؟ لماذا لا يتصالـح هـذا العالـم مـع نفسـه ويصبح كيـدٍ واحدة؟ فهـم دائماً يهتفـون بهـذا ويتغنـون به في أغانيهم، لماذا؟ لمـاذا لا يوحِّد العالمَ دينُ الأخلاق، بغض النظر عن دين كل شعب وجنسه ولونه وعرقه وإلى آخره، لماذا لا يعمّ السلام كل أنحاء العالم؟».

فجـأة، نظـر إلـى عينيه بنظرة فرح يملؤها التفاؤل والرضا وقال في نفسه:

«السـلام العالمـي؟! أعتقـد أنـه موضـوع جيّد لقطعة موسـيقية جديدة!».

الخاتمة

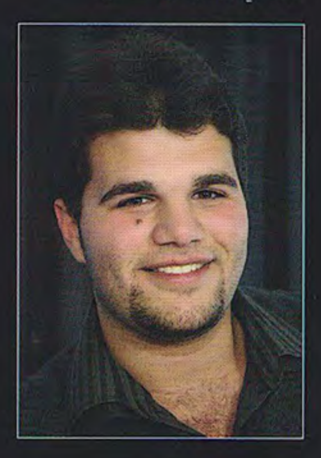
تمّت في عنبتا
بتاريخ 09\07\2013م
الساعة الثامنة صباحاً

كما تشاء!

روايـة

أمير ذوابـة

• روائي وكاتب من فلسطين



تركَت المقعد وذهبَت، تذكرت الرسالة وما قاله عن مرورها إلى الكلية، تساءلت حائرة: «هل فعلاً أن هذا الشاب معجب بي ويحبني، ويريد أن أكون سعيدة دوماً، ولا يريد أن يراني عابسة؟ أم أنه كمعظم الشباب، يتلذذ بالكذب والخداع ليصل إلى قلب فتاة، يدوسه بقدميه بعد أن يطمئن بأنها قد أحبته بكل صدق وإخلاص متفانيين؟ يخدعها ويرميها في مستنقع الإنتقام والهلاك والعذاب، لتصبح كارهة لكل شيء ذكوري في هذا الوجود، ليجلس بعد ذلك بين أصدقائه ويبدأ باستعراض عضلاته، وكيف استطاع بذكائه ودهائه الخارقين أن يوقع بقلبها في شبكة الحب، ليتفرد بانتصار هو العاشر في هذا الأسبوع أو ذاك. لماذا يفعل الناس هذا؟ ألا يعلمون أنها قمة الحقارة والنذالة والكفر بالله، أن نضرم النيران في حقلٍ زرع فيه أحدُهم كل أحلامه وأمانيه، وأودعها أمانة في أعناقنا؟!».

من الرواية



للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.




ISBN 978-9948-446-41-5

تصميم الغلاف: عارف ذوابة